محمد عبد الرزاق قناع

من البطولات العربية الخالدة

صالح الأطرش

حياته وجهاده

من البطولات العربية الخالدة

صالح الأطيوش

حياته وجهاده

محمد عبد الرازق مناع

الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

الرسوم الداخلية بريشة
الفنان رضوان الشهال

إهداء

إلى كل مناضل يكافح من أجل

تحرير أرض واسترداد حق

أهدي هذا الكتاب..

محمد عبد الرزاق مناع

الفهرست

	ص
إهداء	٧
مقدمة	١٣
المجتمع الليبي خلال القرن الماضي	١٩
العادات والتقاليد	٢٩
آل الأطيوش	٣٧
هجرة جده إلى التشاد	٤٥
أول عهده بالجهاد	٥٣
نقطة الانطلاق (معركة النوفلية ـ الخده)	٥٩
النوفلية	٦٣
معركة القرضابية	٧٩
صولة المجاهدين	٨٩
العهد الفاشيستي ـ احتلال اجدابيا	٩٩
تحرير المنطقة الغربية	١٠٥
معركة بئر بلال الأولى	١١٣
معركة البريقة الأولى	١١٩
الوضع العام في المناطق الغربية	١٢٧

ص

المنطقة الوسطى ١٣١
اعتقال صالح الإطيوش ١٣٥
كفاح مستميت ١٤٣
سياسة الأرض المحروقة ١٤٧
خطة الجنرال تيروزي ١٥١
اجتياح المنطقة الوسطى من الشرق والغرب ١٥٧
عمليات المرحلة الأولى ١٦١
احتلال بونجيم والزحف على النوفلية ١٦٢
إحتلال النوفلية ١٦٦
الإفلات من الكمين المحكم ١٦٩
صراع في قلب الصحراء ١٧٧
عمليات الكرّ والفرّ في ربوع الصحراء ١٨٥
قاعدة الكفرة ١٩١
معركة الكفرة ١٩٥
نشوب المعركة ١٩٧
رحلة محفوفة بالمخاطر ٢٠٣
نهاية المطاف ٢٠٩
بعض المراثي ٢١١
المراجع ٢٢١

مقدمة

كان كفاح الشعب الليبي الأبي ضد قوى الاستعمار الأوروبي إبان عصر التكالب والتوسع ملحمة تاريخية مجيدة تعيد الى الأذهان جهاد الاصالة العربية المشبعة بالتعاليم الاسلامية .

لقد ناضل المجاهدون الليبيون ضد الاستعمار الفرنسي في الجنوب وأفريقيا الوسطى في مطلع هذا القرن ثم صاولوا الاستعمار الانكليزي في الشرق وصحراء مصر الغربية . . ثم انهم نكبوا بالاستعمار الايطالي الذي تحول الى استعمار فاشيستي غاشم وواجهوا أعداداً هائلة من الغزاة بمعداتهم العصرية الحديثة مدة تزيد على حقبتين أي حوالى ٢١ سنة .

وقد أفنى الاستعمار والكوارث الطبيعية وقسوة الظروف أكثر من نصف عدد السكان . . ولكن تكبد الاستعمار خسائر

مماثلة ولئن كانت تقل في عدد الأرواح فقد أثخنته في الماديات والمعنويات بسبب إخفاق وسائله القمعية التدميرية في إخضاع شعب عربي صغير طيلة هذه المدة الطويلة القاسية المريرة .

على العموم لقد أسهم الكثيرون ـ أفراداً وجماعات ـ في العديد من المناطق الليبية ، بل من أقصى البلاد الى أقصاها في صناعة هذه الملحمة التاريخية ، وأظهروا من ضروب البطولة والتضحية والفداء ما يعجز القلم عن تسطيره . وفي هذه الدراسة القصيرة أسجل دور « صالح الأطيوش » والبيئة التي نشأ فيها بظروفها الصعبة ومفارقاتها المتعددة ، وكيف برز الى الطليعة بين القوم واضطلع بمسئولية قيادة الرجال ، في أحلك الظروف وأشد الأزمات ، وبحنكة ودراية الى ميادين الوغى في عزم وثبات لدى توجيههم أثناء المعارك الى الأماكن المناسبة وفي أحسن الاحوال أو أسوئها ، وكيف برع ـ وهو الذي لم يتخرج من كلية حربية ـ في تدبير الخطط الحربية الفذة ومواجهة جحافل الاستعمار المكثفة بمشاتها ودروعها وطائراتها في أراض مكشوفة خالية من الموانع الطبيعية ؛ واستطاع خلال عشرين عاماً من الجهاد إحراز الانتصارات تارة وإرباك خطط جنرالات الفاشيست تارة أخرى . وذلك على السليقة وبالفطرة السليمة وبامكانات ضئيلة وبدائية أحياناً .

ولا بد لنا في هذه العجالة أن ندعم حجتنا بشهادة قائد

القوات الفاشيستية ، الجنرال ردلفو غراسياني ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، حين قال :

(كانت ضرورة دفع قواتنا لاحتلال المناطق الجنوبية تفرض علينا أن نجد قبل كل شيء حلاً لمسألة المنطقة الشرقية الممتدة من سرت الى اجدابيا ، فقد كانت تسكن فيها عشائر المغاربة التي لم تخضع قط لحكمنا منذ سنة ١٩١١م حتى الآن (سنة ١٩٢٨م) والتي كانت على العكس من ذلك ، قد أنزلت بنا أضراراً في حوادث مؤلمة وغارات بقيت دون أن ينتقم لها أحد .. ولقد كان زعيمها الرئيسي هو صالح الاطيوش ، وقد بذلت كل المحاولات لحمله على التقدم الى الحكومة ولكي يقوم بهذه الطريقة باعلان استسلامه ، وكانت أسواق سرت مفتوحة له ولرجاله . ولكن كل هذا لا جدوى منه أمام عقليته التي لا تلين وغطرسته بوصفه زعيماً متعصباً متعجرفاً .

(إن كرامتنا ـ والكلام للجنرال المذكور ـ بصفتنا أمة مستعمرة تمنعنا من الاحتفاظ بمستعمرة تكون حدود امتلاكنا لها على الخريطة وحدها بينما يكون الامتلاك والسيطرة الفعلية معدومة . ورغبة في أن تكون هيبة ايطاليا الفاشيستية دائماً عالية وفي مكانها اللائق يستلزم الأمر وضع سلسلة من الخطط في معاملة العرب وتتمثل في إظهار القوة دائماً ، والتي

تؤدي الى نتيجة واحدة وهي القيام بأعمال الجبروت وفي بعض الاحيان أيضاً تجب المغالاة الى حد استعمال القوة والعنف) .

ويستطرد جنرال الفاشيست :

(لقد عملنا على زيادة قواتنا المدرعة زيادة تفوق الحد ، ونحن نعترف ـ كما قال الجنرال ـ بحكم تجاربنا الطويلة أن عدونا صعب المراس وأنه يهاجمنا دائماً في ساعات الصباح الاولى أو نهاجمه نحن ، وفي كلتا الحالتين يكون لدى القادة الوقت الكافي للاستعداد لاستعمال أشد الأسلحة فتكاً وفعالية . ذلك أنه اذا طال الصراع الدامي سوف يكون مجهودنا أكثر مشقة بعد أن كان شاقاً من قبل ، وسوف نعيش دوماً فوق مخزن بارود سريع الانفجار ، وسوف نستطيع بحكم الصراع المرير تدمير الشعب الوطني كله وأن نصل الى السلام ، ولكنه سلام المقابر . .)

لقد أمضى صالح الأطيوش حياته محارباً ممسكاً بالسلاح ـ بشهادة ألد أعدائه ـ لم يهادن أو يستسلم لحكم استعماري استيطاني أحمق مطلق اليد لا يسأل عما يسفك من دماء وما يصادر من أراض وما يرتكب من جرائم ، بل قارعه مقارعة الند للند بامكانات قليلة وأسلحة غير متكافئة وتحدى أعتى سبل القمع والردع والإرهاب ، فكان صادقاً عفيفاً عن الصغائر وعزوفاً عن الاغراءات وعنيداً في الحق ومصلحة

الوطن العليا حتى آخر رمق في حياته ..

واستميح القارىء الكريم عذراً اذا أغفلت ذكر مناضل آخر أو منطقة أخرى لأنني هنا لا أدون تاريخاً يتطلب العديد من الدراسات المتشعبة بقدر ما أركز على كتابة سيرة جزئية من ملحمة كلية ، في محاولة أن أرسم ملامح حياة مناضل مخلص والمنطقة التي جاهد فيها ضد قوى البطش والبغي والطغيان .

ويحدوني الأمل أن أكون قد وفقت نسبياً في تصوير واقع حياة صالح الأطيوش وجهاده الفذ في الأطر الصحيحة وفاء له من جيلنا المعاصر على ما قدمه من تضحيات وبذل وعطاء في سبيل الوطن والأجيال اللاحقة الذين رفع هاماتهم عالية بين الشعوب المكافحة .

والله المستعان .

محمد عبد الرازق مناع

المجتمع الليبي
خلال القرن الماضي

قبل الاسترسال في سيرة المترجم له لا بد لنا من لمحة عابرة عن البيئة التي نشأ فيها وترعرع ومهدت له للاضطلاع بالمسئولية التاريخية مع الاشارة الى أوضاع المعيشة. في ربوع البادية والظروف المحيطة بها ورسم ملامح الحياة فيها خلال القرن التاسع عشر .

من الملاحظ أن المواطن الليبي استطاع بفطرته عندما كان عصر البخار والكهرباء في بداية أطوار النشوء أن يتأقلم مع البيئة الصحراوية الجافة عديمة الأشجار والانهار والينابيع وأن يدرأ مخاطرها ويواجه قسوتها ويجعلها منطقة مأهولة تحقق الاكتفاء الذاتي والثروة بل والتصدير بعد تجارب عديدة معتمداً على الأرض والحيوان ومعرفة الطبيعة .

تقيم عشيرة المترجم له عبر البراري الواسعة الرحبة بين سرت والمقرون وكان جده علي الأطيوش قائمقام على مدينة

سرت إبان العهد العثماني ، بينما تولى والده الكيلاني الأطيوش وظيفة قائمقام على واحات الكفرة قبل الاحتلال الايطالي وعاد منها على أثر نزول الاستعمار الايطالي على الشواطىء الليبية وتوفي في الصحراء متأثراً بالعطش .

وقبل ذلك كانت الحياة عادية على السهول والروابي التي يندر فيها المرعى الجيد في المنطقة الممتدة من الشمال الى الوادي الفارغ ، الا أنه يعترضها بالعرض ، ومن الشمال الى الجنوب العديد من الوديان التي يتوفر فيها المرعى الخصيب والأراضي القابلة للفلاحة خلال فصل الربيع وكذلك الصيف ، كما توجد الآبار قرب الساحل والمراعي الأكثر خصوبة في الوديان الممتدة جنوباً لغاية الوادي الفارغ .

وتكاد حياة البادية تكون مرهونة بهطول الأمطار ، فان هطلت مدراراً ازدهرت الحياة وإن شحّت تصبح عسيرة ، وترغم الناس ، بل في جميع الاوقات ، على الانتقال من مكان الى مكان آخر بين مناطق التربة البيضاء والتربة الحمراء والجبال والسهول والغابات بحثاً عن الماء والكلأ .

لقد كانت الحياة هناك شاقة وغير مستقرة إذ حيثما يوجد ماء ومرعى يتواجد الناس بقطعانهم . وكثيراً ما ينتقل أصحاب الماشية جنوباً ثم يعودون الى الشمال خلال فصل الجفاف للسقاية في حين لا يستقر أهل الشمال بل ينتقلون بين المراعي

المختلفة ومواطن المياه الدائمة وأراضي الفلاحة .

يعتبر سكان هذه المنطقة أكثر غنى فهم يملكون العديد من قطعان الماشية والابل وغيرها ويحيون حياة مستقلة ويمارسون أعمالاً شاقة بهمة ونشاط متجددين وينتقلون ـ كما أسلفنا ـ الى الجنوب خلال فصل الشتاء حيث يتولى بعضهم عملية الحرث وبعضهم يسوقون الماشية والابل هنا وهناك ثم يعودون خلال فصل الصيف الى نقطة الانطلاق عندما تجف الآبار وتذبل الأعشاب . ويجني هؤلاء عدة مزايا من هذا التنقل أبرزها المرعى الخصيب في منطقة جديدة أكثر خصوبة وجودة طوال شهور السنة .

ويعتمد هؤلاء بالفطرة على حسابات فلكية غاية في الدقة والاتقان يعرفون بها فصول السنة كوقت الشروع في الحرث ورعي لماشية وموعد الحصاد وحلول البرد القارس الشديد والعواصف الرملية الهوجاء، بواسطة الثريا يستدلون على احتمال حدوث الأنواء المختلفة ، ويحددون بالنجم القطبي الاتجاهات أثناء التجوال عبر البراري الواسعة المترامية الأطراف .

وعندما تصل القطعان الى الجنوب خلال شهر نوفمبر ، موعد ميلاد الخراف تكون الأعشاب الجديدة قد نمت أو أخذت

في النمو المبكر هناك فيتوفر لها الكلأ الجديد مع طقس أكثر دفئاً يلائم أعمار صغار الماشية .

ومن الملاحظ أن هطول الأمطار يقرر باحكام الكساء الخضري وينظم توزيع المواشي ويرسم ملامح الحياة على العموم . وتعتمد كمية الأمطار على ظروف عدة إذ يقل متوسط هطولها السنوي من الغرب الى الشرق تبعاً للمرتفعات والمنخفضات . إن تنوع المرتفعات والمنخفضات والاتزان الموسمي واختلال الطقس بطريقة غير منتظمة يؤثر على الخصوبة والقحولة على حد سواء . وإن موسم الأمطار الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الناس يحل خلال فصل الشتاء المبكر في الغالب حيث يبدأ خلال شهر أكتوبر لغاية شهر ابريل .

ونظراً لعدم وجود الري المنتظم فان فصل فلاحة الحبوب يتحدد بوضوح ، بينما ينتهي موسم المرعى في الجنوب عندما تذوي الأعشاب وتجف الآبار نوعاً ما ويضطر أصحاب الماشية والإبل أن يتوجهوا بقطعانهم شمالاً في مرحلة النقلة الموسمية من البراري الجنوبية الى جهة الساحل . ويتم الانتقال الى النجود قرب الساحل عبر دروب متعرجة ورواب مشوكة تجعل اجتياز المنطقة متعباً وعسير المرتقى . والجدير بالذكر أن مراعي الجنوب تقتصر على الماشية والابل فحسب وليس على الأبقار التي لا تطيق طبيعة حياتها الهجرة والانتقال .

ترعى الإبل طوال شهور السنة لا توجد مراع جنوبي خط مسوس ـ بئر تنجدير ـ بئر حكيم .

وبينما يركز أهل الجبل الأخضر على تربية الأبقار والماعز التي يتوفر لها الكلأ في المراعي المدغلة فان أهل البراري يقتنون الأغنام والإبل التي يعتمدون عليها اعتماداً مطلقاً والتي يتخيرون لها المراعي الكثيرة الحشائش كغذاء عمومي لها ، فالغابة تصبح عديمة الجدوى بلا أبقار وماعز كما تمسي البراري عقيمة المعطيات بلا أغنام وابل وفلاحة .

وكانت المنطقة المعنية بالأمر مرعى أساسياً للأغنام والإبل والفلاحة ، أي فلاحة الحبوب فحسب في المرتبة الأولى ، لان أهلها ميالون للحياة الرعوية الصرفة عازفون عن الفلاحة المتكاملة . فالبدوي يهتم بتربية الماشية وزراعة الحبوب فقط ولا يلتفت الى سواهما ما دامت توفر له الغذاء الرئيسي من الغلال والدسم واللبن والجلود والأصواف والأوبار وأدوات النقل والركوب وغيرها التي تستخدم في أغراض الفلاحة .

إن الانتاج الرعوي في هذه البراري الباردة شتاء القائظة المتربة صيفاً والزاخرة بالزواحف السامة يوفر كل متطلبات الحياة ويجعل الانسان أصلب عوداً وأكثر صحة وثقة بالنفس وأغنى متاعاً .

ومن هاتيك المنطقة تساق القطعان ببطء وصبر شديدين

إن اختلال نسبة الأمطار في هاتيك الربوع واختلافها بين عام وآخر وتوزيعها خلال فصل الشتاء يشكل أبعاداً غير مضمونة المعطيات . ومن الطبيعي أن يكون عام من بين عدة أعوام شحيحاً قانطاً قليل المحاصيل الأمر الذي يترتب عليه مخاوف على المراتع المختلفة . غير أن احتياطي المياه في الهضبة العليا المحصلة من الأمطار على علاتها يكفي السكان والمواشي في الأراضي الطفلية .

واذا كانت الطبيعة قد حبت أهل الجبل الأخضر بالخضرة الدائمة والغابات المتشابكة والمنابع التي تتدفق دوماً بالمياه والمعيشة الميسورة فانها قد شحّت وبخلت مقترة على منطقة خليج سرت الذي يكمن في جوفه ـ دون أن يدري أحد حينئذ ـ أضخم مستودع للذهب السائل الأسود ، ذلك أنه حيثما توجد أمطار غزيرة ازدهرت الأرض بالغابات والأحراج والنبات وحيثما فترت تقتيراً ندرت الخضرة وامتدت البراري وكلما انعدمت برزت قحولة الصحراء .

والجدير بالذكر أنه تنمو في التربة الشاحبة الضاربة البياض ببرقة البيضاء حشائش تشبه الكرنب وعلائق عديمة الفائدة أو حشائش مقاومة للجفاف في الوديان وكذلك أعشاب سنوية أو دائمة طول السنة وهي التي توفر المرعى للماشية والإبل خلال فصل الربيع . غير أنه باستثناء وادي المراءة حيث

بعد ظهور الأعشاب وتجنيب الماشية المناطق المزروعة .

ويشرع في موسم الحصاد خلال شهر ابريل ببرقة ويبدأ في وقت متأخر في الجبل الاخضر اعتباراً من شهر مايو لغاية شهر اغسطس . ويركز المزارعون على الاكثار من زراعة الشعير بأنواعه المختلفة عن القمح باعتباره الغلة الاولى التي تفي بأغراض غذاء الانسان وأعلاف الحيوان .

وتحوطاً من السنوات العجاف المحتملة يقوم المزارعون بتخزين الغلال في الكهف (كاف) وهو عبارة عن حفرة عميقة توضع فيها الغلال للوقاية وتغطى بطبقة من تبن وطين .

وغني عن البيان أن غلال الشعير والقمح تنمو في سهول برقة نمواً مطرداً وتصل معطياتها ومحاصيلها الى نحو مائة ضعف ، أو خمسين ضعفاً .

وتكفي منتجات المنطقة من الغلال لسد حاجة البلاد بأسرها بل ويصدر منها الى مطاحن أوروبا ومصانع الجعة في انكلترا وذلك لتغطية استيراد الشاي والسكر والأرز وبعض الأقمشة .

لقد سبق التنويه أن المجتمع كان يتمتع بالاكتفاء الذاتي بتوفر الغلال والدسم بالاضافة الى خامات صناعة الكساء

في هذه المنطقة من بلاد العرب نشأت أسرة المترجم له وترعرعت وتأقلمت مع البيئة الصحراوية القاسية التي بعثت فيها الشمائل الحميدة ووهبتها رجالاً أفذاذاً كان لهم شأن عظيم في تاريخ الوطن والذين سيلي ذكرهم ابتداء من علي الأطيوش والكيلاني الأطيوش ثم صاحب الترجمة، بعد إعطاء لمحة موجزة عن العادات والتقاليد والأوضاع السائدة في المنطقة آنذاك .

منذ أن استوطن أسلاف العرب من بني سليم هذه الديار خلال القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر ميلادي تم التعريب الايجابي على أوسع نطاق في جميع أرجائها وسادت التقاليد العربية الأصيلة .

والحقيقة التي يجب معرفتها أن السنوسية ابتداء من السيد محمد بن علي السنوسي ولغاية السيد أحمد الشريف قد بذلت مجهودات محمودة في ترسيخ التعاليم الاسلامية وزرع النخوة الوطنية والحماسة القومية حتى جنت ثمارها خلال الجهاد الوطني .

كانت زاوية العقر وزاوية القطفية وغيرها تمثل مركز إشعاع على منتجعات الجبارنة من أولاد عبد الدائم المتناثرة عبر

البراري في التجاويف ومنحدرات الوديان المستقر منها والمرتحلة(١) .

ورغم الاختلاف النسبي في أحوال المعيشة بين الجبارنة وجيرانهم من القبائل الاخرى فان الجميع تتجسد فيهم الخصائص العربية القحة وهم يسلكون سلوكاً واحداً تقرره العادات والتقاليد والميول والأمزجة المتجانسة وتحدده أبعاد علاقاتهم فيما بينهم ومع جيرانهم في المدن الساحلية والواحات الصحراوية .

وعلى عكس ما يحدث في الأقطار العربية الشقيقة من

---

(١) من الصعب ان نضع مقياساً معيناً للاستقرار بسبب الارتحال المستمر ، ولكن هناك فئات ثلاثاً تتمثل في الرحل وشبه الرحل والمستقرين ، ونعني بالرحل هنا هم الذين يرتحلون باستمرار يذرعون البراري طولاً وعرضاً وراء الإبل ، وشبه الرحل هم الذين ينتشرون انتشاراً واسعاً في منطقتهم ومناطق مجاورة بحثاً عن المرعى الخصيب وأراضي الفلاحة . أما المستقرون فهم الذين يقيمون إقامة عادية دائمة في مناطق معينة تقام عليها مضاربهم هنا وهناك ويرعون الماشية والإبل ويستزرعون الأرض ويتنقلون خلال مواسم معينة .

مع العلم أن كل قبيلة تتخذ لنفسها أرضاً خاصة بها لا تتجاوزها إلا بإذن الاخرى ما عدا الصحراء المشاعة للجميع . وكذلك مدن وقرى الشريط الساحلي الخاضع للتخطيط المدني المعماري . وقد استن هذا العرف بعد منازعات عنيفة أدت في مدد طويلة ، خلال القرون الوسطى ، إلى حروب أهلية مأساوية دامية ثم استقرت الأمور في أواخر القرن الماضي واصبحت على ما هي عليه الحال الآن .

تطاحن الطبقات وتكالب الفئات والفروق الواضحة الناتجة ـ على ما يبدو ـ عن احتكار تجاري أو نفوذ إداري في المدن ، وقبول أهل الريف الحياة على علاتها لدرجة الخنوع والاستسلام للاقطاع السلطوي ، فان المجتمع الليبي قد أجارته العناية الإلهية من هذه الشوائب والطفيليات .

تتحكم في هذا المجتمع الصغير ضوابط أخلاقية وأعراف اجتماعية معينة فذة ومصالح اقتصادية مشتركة ، ويتقيد بتعاليم دينية حنيفة ويجمعه غرض وطني موحد الآمال والآلام . والمجتمع المثالي هو ما اجتمع أهله وانضم بعضه الى بعض في السراء والضراء في بوتقة الخير والحق والاستقامة .

فلا وجود في الغالب للتطاحن والتغابن في مجتمع يتشبث فيه الفرد بالكرامة الشخصية وإكرام الوفادة التي يغلّبها على الأمور المادية الصرفة ، ويتسم بالبساطة والتواضع في غير ضعف واستكانة ، والطيبة في غير سذاجة ، والشجاعة في غير تهور أو تسلّط . ويدين فوق كل هذا بالولاء للأرض والجماعة في حين تحترم الجماعة مكانة الفرد . . ويعتبر الجميع أنفسهم (فرداً واحداً) ينحدرون من أصل واحد قادم على مراحل زمنية متوالية من شبه جزيرة العرب . منهم من استوطن البادية وصار بدوياً ومنهم من استوطن الحواضر وصار حضرياً ، وكلهم أخوة في الاسلام . كما تنصهر الجاليات الاسلامية سواء

كانت من افريقيا أو جزر البحر الأبيض المتوسط في بوتقة المجتمع الليبي لها حقوق المواطنة وعليها واجباتها وهي متأقلمة في المجتمع تأقلماً تاماً .

ومن هذه المظاهر الواضحة تغمر المساواة هذه الديار التي لا وجود فيها لطبقات ولا فروق بين هذا وذاك اللهم الا اذا استثنينا بعض التفاوت في الحظوظ والعقول التي لا تؤثر على حقوق الفرد ومنزلته بين الجماعة .

وفي المجال الاقتصادي لا وجود للاستغلال والمرابات في المدن فلا احتكار للتجارة ولا نفوذ في الادارة ولا ملاّك أرض يهيمنون على أراضي الريف ويعيشون في بذخ على حساب شقاء أهله . ولا طفيليات تمتص دماء الآخرين .

والمقايضة حرة بين أهل الريف والواحات والمدن يحددها

ميزان العرض والطلب والارتباط المصلحي دونما تدليس أحد على الآخر أو إدانة تتطلب الحماية . ثمة أسواق للتبادل التجاري حيث يقوم البدو بتسويق منتجاتهم من الماشية ومشتقاتها والغلال وشراء لوازمهم من المصنوعات الجلدية والأقمشة والأواني والصوان والبارود والأملاح وغيرها من إنتاج الحرفيين وتجار التوريد الذين يستوردون السلع المختلفة من موانىء جزيرة خانية ومالطا والاسكندرية ولندن ومرسيلية . أو من القوافل القادمة بالسلع من الأقطار الافريقية .

ليس في حياة المجتمع الليبي ما يعرضه للمراباة لانعدام المرابين والعائلات الاقطاعية المتسلطة في المدن التي تعيش عادة على حساب أهل الريف في البلدان الأخرى . ولهذا نادراً ما تقام الدعاوى وقلما تعرف القضايا الطريق الى المحاكم العثمانية . واذا حدث نزاع وهو لا يحصل مؤخراً الا لماماً تتم

تسويته في مجالس عرفية بواسطة عقلاء من الطرفين ممن يشهد لهم بالحصافة والنزاهة وأصالة الرأي .

هكذا يعيش مجتمع الريف هنا على أرض واسعة ينتفع بخيراتها بوسائله الفريدة الخاصة لا يحتكرها محتكر أو يملكها اقطاعي مراب مستغل لمراقب أو جابي مكوس ، إلا في حالة نادرة . ولا ينطبق هذا الاعتبار على المجتمعات العربية المجاورة التي يسيطر عليها إقطاعيون محليون وأجانب يرغمون أهلها قسراً على فلاحة الأرض بأجر زهيد . ويتنقلون مع ملكية الأرض بين إقطاعي وآخر . وإذا تذمروا نزعت منهم كل الحقوق وطرحوا على قارعة الطريق .

وتعميقاً لهذا المفهوم الواضح لنعمة المساواة التي تحقق كرامة الفرد عدم وجود طبقات مترفة أو اقطاعيات أو باشوات أو آغوات ، وكل ما في الأمر ثمة طبقة متوسطة من المثقفين ، ولكنها قليلة الثروة وعديمة النفوذ .

ولم يكن هذا المجتمع متقوقعاً منغلقاً على نفسه خلال القرن الماضي كما يتبادر الى الأذهان ، فبالرغم من انعدام وسائل النشر وبطء الطريق وسوء المواصلات(١) فان أخبار العالم ولا سيما اقتتال الدروز والموارنة في بلاد الشام وصراع الأتراك العثمانيين على السلطة في الآستانة وتكالب الدول

---

(١) كان يوجد خط سكة حديدية طوله حوالي ٥ كم يربط ما بين البركة ومدينة بنغازي ، وسيارة واحدة يستقلها الحاكم العثماني .

الأوروبية الاستعمارية على بلاد العرب وتلويح الاستعمار الايطالي بغزو ليبيا كانت تصل تباعاً الى أقصى نجوع البادية بواسطة (الحدارة) المترددين على المدن الساحلية .

كانت الأعراف تتحكم في التصرفات الفردية والجماعية في المجتمع الليبي .

وعلى الرغم من الحروب القديمة والمنازعات الشديدة حول الأرض واختلاف الظروف فقد كانت ثمة أعراف تفرض نفسها على كل الجماعات وتقضي بوجوب منح الفرد حرية استزراع الأرض واستغلال آبار المياه ، وكانت ثمة اتصالات مستمرة بين الجميع وتبادل إكرام الوفادة ولجوء البعض الى الجيران لاقتسام العيش او المرور عبر المنطقة الى الأسواق المصرية لتسويق المنتجات ، أو تلبية الحاجة الى فلاحة أرض عند آخر أو ملاحقة إبل ضالة لغرض استرجاعها .

لقد فرضت هذه الأعراف اعتراف الكل بالحقوق الفردية بصرف النظر عن النسب أو الهوية أو التكوين الاجتماعي .

الأرض في البراري مشاعة على القبيلة وتملك البيوت فيها حق الاستغلال .

القبيلة تجمع كل البيوت (الافخاذ) . ويتضامن أعضاء البيت في دفع الادية أو التعويض عن ضرر لحق من طرف واحد منهم الى المتضررين الآخرين والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليهم

وهم إجمالاً مسئولون مسئولية مشتركة لتحمل وزر أو خطأ ارتكبه فرد منهم في حق الآخرين .

لقد كان مجتمعاً مترابطاً بالفطرة وتتحكم الأعراف العربية في التصرفات الفردية والجماعية .

غير ان رأي الشيخ مطاع في الغالب ويحمل قوة القانون اذا كان سديداً منطقياً مفحماً .

على انه ينبغي أن يكون للشيخ رحابة صدر وطول باع وأن يكون على درجة من اليسر لمواجهة أداء واجباته نحو إكرام الضيف وعقد الاجتماعات وفض المنازعات والعمل لما من شأنه المحافظة على السمعة ومساندة المعوزين والأخذ بيد المغبونين . ومن أبرز مهامه قيادة الرجال عند نشوب الحرب ، والثراء لا يكون شرطاً أساسياً إذ أنه يوجد الكثيرون من الشيوخ الذين لا يملكون شروى نقير .

ومهما كان الشيخ على درجة من الثراء الواسع أو النفوذ المطلق فهو لا يترفع على أبسط فرد من القوم . وهو يعيش عيشة عادية بسيطة . يتناول نفس الطعام الذي يتناوله الفرد العادي ويرتدي ملابس مماثلة له . الا أنه يمتاز في المتجع بخيمته الكبرى فقط لاستقبال الضيوف وكذلك بكثرة الجياد المطهّمة والذكاء والحنكة والتجربة الفذة .

في هذه البيئة عاشت أسرة الاطيوش بربوع البادية بين سرت غرباً والمقرون شرقاً .

آل الاطيوش

يكنى جد الأطيوش بهذه الكنية لأنه كان يملك وهو صغير السن مهراً صغيراً اطوش . وعندما كان يأتي الى تجمعات الفرسان فيقولون ها قد أتى فارس الأطيوش تصغيراً للمهر الأطوشي . ومنذ ذلك الحين علقت به الكنية وبابنائه وأحفاده من بعده .

ينحدر صالح الأطيوش ، صاحب الترجمة ، من قبيلة المغاربة الرعيضات آل بوشيبة ، ويتسلسل نسبه على النحو التالي : صالح ابن الكيلاني بن علي (الأطيوش) بن سليمان بن عبد القادر بن مبارك بن بوشيبة بن عبد القادر بن سليمان بن عمر بن الرعيض بن عبد الدائم بن جبريل بن برغوت بن ذئاب وسعدة .

ولا يخفى أن قبيلة المغاربة تنتمي الى عبد الدائم بن جبريل وهم فرع من (الجبارنة) الذين يكوّنون السواد الأعظم

من قبائل برقة . وتضم قبيلة المغاربة الرعيضات وأولاد شامخ وينقسم كل بطن الى عدة أفخاذ . فمن الرعيضات أبو شيبة وبهيج ونوفل وعليوة وبلقراقع والصبيحات . ومن أولاد شامخ : نصر وصبح ومنصور وعلي . ويقيم كل هؤلاء في منتجعات برقة البيضاء والمنطقة الوسطى وبعضهم في المدن الساحلية .

ولا بد لنا من الإشارة الى أن القبيلة تنقسم في تسلسل النسب الى ثلاثة أقسام هي: القبيلة والعائلة والبيت . وتجمع القبيلة كل الأفراد في السراء والضراء . والعائلة تعني البطن والبيت يعني الفخذ .

والبيوت تمثل أربعة أو خمسة أجيال وتبدأ من الجيل المعاصر لغاية العائلة .

وآل الأطيوش ، مثلاً ، هم بيت من قبيلة المغاربة - كما أسلفنا - ينتمي أفراده للرعيضات وهم بطن من بطون هذه العشيرة وهم يمثلون المشيخة أو الزعامة .

وفي التكوين الاجتماعي ، إن لكل بيت أو عائلة شيخاً تقتصر مهمته على فض المنازعات وهو ، أي الشيخ ، ليس بالحاكم أو الإداري ، كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن له سلطة رمزية يحافظ بها على مصالح الجميع ويتولى تمثيلهم .

ويكنّ مجتمع البادية الاحترام للشيخ ، ولكن الأفراد لا

يعتبرونه أعلى منهم منزلة او أعظم منهم شأناً ، ومع ذلك يقبلون أن يطبق عليهم قانوناً عرفياً في قالب فطري .

ويعتبر نفوذ الشيخ وثروته بمثابة الرصيد المستمد من مكانة الجميع وثرواتهم وقوة الرجال وخصائصهم في المجتمع ، يسحب منه الجميع عند الضرورة لمصلحة من يحتاج الى ذلك ، ومن الصعب أن تلمس سلطة معينة في التكوين الاجتماعي ولكن الزعامة تبرز في حالة الحرب فحسب .

وقد ظهر من هذه الأسرة العديد من الرجال الأفذاذ أبرزهم علي الأطيوش جد المترجم له والذي ما كانت زعامته تقوم على القوة أو الهيمنة أو السيطرة أو السلطان بقدر ما كانت قد استمدت من ثقة المجموعة به لما لمست فيه من صفات المروءة والشجاعة ومكارم الاخلاق .

كان علي الأطيوش حصيفاً وذا رأي سديد ومطاع الجانب وهو صاحب الحل والعقد والمشورة وعلى درجة من الحكمة والروية ، طويل العنان عظيم السؤدد ، عميق الحديث قليله ، لا يشتط أثناء الأزمات والشدائد ولا يرخي العمامة ، ولكنه حاسم ونزيه ومتسامح ويمسك العصا من الوسط .

وقد أهلته هذه المآثر أن يتولى مهمة قائمقام على منطقة

سرت إبان العصر العثماني الثاني وأن يمنح رتبة الباشوية حينذاك .

أنجب علي الأطيوش خمسة أولاد وهم على التوالي : سليمان والكيلاني وسعيد وعبدالله وسليمان (توفي صغيراً) وقد تولى سليمان الابن الأكبر منصب قائمقام على مدينة الخمس حيث توفي هناك قبل والده .

اشتهر علي الأطيوش - كما أسلفنا - بالشجاعة والكرم والنخوة والتسامح بين أهله وجيرانه في وقت اشتد فيه النزاع القبلي والفوضى ، غير أن السلطات العثمانية قد حكمت عليه بسبع سنوات سجناً في اسطنبول بسبب عدم إذعانه في المساعدة على تطبيق أحكام القوانين التركية المجحفة في جباية الضرائب من الأهالي .

وبعد مكوثه ما يزيد على سنتين في السجن اجتمع مشائخ وأعيان المغاربة وقرروا في ذلك الاجتماع وجوب إيجاد حل لاخلاء سبيله من السجن . ولا يخفى أن الفدية كانت معمولاً بها حينذاك . فتقرر أن تجمع الإبل من أفراد القبيلة على شكل حصص يؤديها كل فرد قادر على العطاء .

وتبرز في هذه الأثناء حادثة على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنه عندما جمّع أهل القبيلة الإبل ومروا بها من أمام الحاج

رحيم أبو هريرة الذي اشتهر بالكرم والنخوة والثروة الطائلة استوقفهم قائلاً :

(ما زال شوي ما تجيب علي)

وتعني هذه العبارة أن ما جمعتموه من الإبل ليس بالكافي لإخلاء سبيل علي من السجن ،ومن ثم أمسك بعقال ووقف بجانب إبله الكثيرة ورمى به بشدة على إبله قائلاً :

كل الإبل التي كانت ما دون العقال فهي هدية متبرعاً بها في هذه المناسبة .

وقد بيعت هذه الإبل في أسواق بنغازي بثمن معقول كان مغرياً للسلطات العثمانية لإخلاء سبيل علي الأطيوش من السجن .

ثم عاد الى أرض الوطن معززاً مكرماً وعاش بين أهله وذويه في منتجعات البادية بالمنطقة الوسطى .

ومما يذكر عن مروءته وتسامحه ومواقفه العديدة في هذا الشأن أنه ذات مرة قد أتى غزو من القبائل الغربية (سمي بغزوة الغنمة) بغية الاستيلاء على إبل المغاربة ، وقد تصدى لهم أفراد القبيلة بقيادة علي الأطيوش وردوهم على أعقابهم . ولما كان الفرسان يتعقبون الفلول المنهزمة ضلّ المنهزمون الطريق وأوشكوا على الدخول في أرض موحلة تسمى (سبخة

المقطاع) في المنطقة الواقعة ناحية العقيلة .

وعندما شعر علي الأطيوش بأن خصومه أوشكوا على الهلاك بأن تبتلعهم تلك الأرض الموحلة تحركت فيه العاطفة الانسانية وأراد إنقاذهم فأخذ يلهد على صهوة جواده بمحاذاتهم من جهة الجنوب محذراً إياهم قائلاً :

(ايساره يا عطيبين الغزوة)

وكان يعني بذلك أن اتجهوا الى جهة اليسار أيها الغزاة الفاشلون حتى تتجنبوا هذه الأسباخ الموحلة التي سوف تبتلعكم عن آخركم .

ولما كان أولئك الغزاة من المعتدين فقد تردد بعضهم في الاذعان لنصيحته متوقعين أنه كمين . الا أن البعض ممن كانوا يعرفونه معرفة جيدة ويثقون في مقاله قالوا انه فلان ولن يغرر بكم أبداً .

وبالفعل اتبع الجميع أثر جواده وقد نجاهم من هلاك محقق في تلك الأرض الموحلة .

لقد أمضى علي الأطيوش حياته كلها متساعاً شهماً ذا مروءة وعزم مع كل من أساء اليه على الرغم من قدرته على الانتقام في ذلك العهد الذي يسوده النزاع القبلي البدائي وشريعة الغاب .

لقد كان متحلياً بالطيبة ومكارم الأخلاق ، أخلاق العرب الأقحاح حتى وافته المنية بعد تأدية فريضة الحج بأرض الحجاز وهـو في طريقه الى المدينة المنورة في منطقة خليص حيث دفنه زملاؤه الحجاج من الركب .

وقد رثته ابنة كيشار ، وهي من بين الحجيج قائلة :

(دونك توصّى بيه يا خليص يا وجالك علي)

وكانت ابنة كيشار وكأنها تناجي تربة خليص موصية إياها أن تترفق برفات علي الأطيوش الانسان الشهم الذي عاش حياته محباً للخير كارهاً للشر ينأى عن صغائر الأمور ويتسامح مع من أراد به وبقومه شراً أو ضرراً أو سوءاً .

لقد عاش علي الأطيوش عزيزاً ومات وهو كريم . عاش عزيزاً فقد تبوأ بين قومه مبوأ عزيزاً ومات وهو كريم يؤدي إحدى الفرائض الخمس بعد تاريخ طويل من الكفاح والنضال .

وقد تولى من بعده ابنه الكيلاني علي الأطيوش شئون المغاربة ، الا أنه كان على عكس سيرة والده . فقد كان شديداً صارماً ، ولعل ذلك كان بسبب الظروف المريرة القاسية التي كانت تمر بالمنطقة العربية .

نصّب الكيلاني على الأطياش قائمقام على منطقة الكفرة في أواخر العهد العثماني .

وعند قدوم طلائع العهد الاستعماري الايطالي الى شمال البلاد أعد نفسه للمشاركة في مقاومة هذا الاستعمار الغاشم ولكن القدر كان يحمل ما لم يكن في الحسبان .

هجرة جدة الى التشاد

تنحدر حليمة أم صالح الأطيوش من قبيلة المغاربة وهي ابنة أمحمد بن يوسف ابن عم علي الأطيوش والذي غادر الديار الليبية وتوجه الى تشاد وأقام هناك ونصب نفسه سلطاناً في منطقة الشمال . ولهذه الهجرة قصة .

حدث ذات مرة أن سطا غزو من العواقير على إبل أمحمد بن يوسف واتجهوا شرقاً نحو برقة الحمراء .

وقد حزّ في نفسه ذلك فجمّع حوالى ٥٠٠ من المقاتلين بغية غزو منطقة العواقير لاسترداد إبله والانتقام منهم بكيفية انتقامية دموية مؤسفة وقد كتم سر ذلك .

وعندما لاحظ علي الأطيوش أن المتجع يعج بالحركة والنشاط ورجاله في حالة استعداد للحرب بهمة وحماس وروح معنوية عالية ،عند ذلك انتابه الشك وحاول الاستفسار من

احمد بن يوسف عن هذا الحشد من الرجال والى أين سيتجه بهم وضد من سيخوض المعركة والهدف الذي يسعى الى تحقيقه ، ولكن دون جدوى فلم يخبره بالحقيقة .

ومن هنا أوعز علي الأطيوش إلى زوجة احمد بن يوسف أن تتحرى الحقيقة من خلال نقاشه مع كبار أفراد الغزو . وذات ليلة عندما كان أحمد بن يوسف يستعد للرحيل مبكراً أخذ ينظف سلاحه فاحصاً إياه للتأكد من سلامته وهو يقول مناجياً فرسه :

هني من بلطها في نياق الكزه
اما لازه والا تجيء ملزّه

ولما سمعت زوجته هذه الترنيمة ذهبت على الفور الى خيمة علي الأطيوش ورددت له ما كان يترنم به زوجها على فرسه وكان يعني بذلك أنه سيكون هنيء البال من يغير على إبل الكزة فإما أن يحالفه الحظ وينزل بهم الهزيمة أو أن يخذله ويعود مهزوماً مدحوراً وفي كلتا الحالتين يعتبر نفسه سعيداً هنيء البال قرير العين .

ولما سمع علي الأطيوش بذلك خرج من فوره قاصداً خيمة أحمد بن يوسف حاملاً بيده ما كان يعرف بالقاربيلة، وهو نوع من السلاح أكبر حجماً من المسدس ، وفاجأه قائلاً :

لقد اكتشفت سر ما تضمره وهو أنك تهيء هذه الحملة للهجوم على منتجعات العواقير وهم إخوة وأشقاء لنا وما كان بيننا من خلاف يمكن تسويته بالتفاهم والطرق الودية دون إراقة الدماء . وعلى هذا أطلب منك تفريق هذا الحشد والعدول عن فكرة الغزو وأنا أتكفل لك بتسوية الأمر ودياً مع الأخوة العواقير .

إلا أن امحمد بن يوسف اشتط رافضاً الاذعان مصراً على وجوب تنفيذ ما كان ينوي متعللاً :

كيف أواجه هؤلاء الناس الذين جمّعتهم لقضاء الوطر والانتقام من المستهزئين بنا .

ولما انتاب الأطيوش اليأس من اقناع ابن عمه الذي كان لا يقل عنه قوة وصلابة قال له حاسماً الموقف :

« اعرف أنك الآن في قوة من الرجال يصعب ردعك وإيقافك عند حدك ، ولكن الذي أؤكده لك جازماً أن أقسم لك بأغلظ الايمان أنني سوف أفرغ ما بداخل هذه القاربيلة في صدري ، إن أنت أقدمت على هذه الفعلة الشنعاء ، ذلك أنه يعزّ عليّ ان اشهد خراب برقة في فتنة بين الأخوة الأشقاء ».

كان الموقف خطيراً والمشهد رهيباً والإحراج زاد عن الحد ، وخشية أن يقدم علي الأطيوش على تنفيذ قسمه فاختار

احمد بن يوسف بين العدول عن فكرته وتنفيذها . وقد رأى إن هو أذعن للضغط اعتبر ذلك تخاذلاً وغبناً يضيق له الصدر وإن هو تجاهل وأصر اعتبر ذلك مخالفة تؤدي الى خسارة فادحة وكارثة محققة .

عند ذلك لم يجد احمد بن يوسف بداً من أن يعبر عن مكنونه قائلاً :

ـكنت سألقن العائبين أكبر الدروس والعبر وكادت أن تكون ملحمة سيذكرها التاريخ في أنصع صفحاته جزاء وفاقاً لما ارتكبوه في حقنا وانتهاك حرمتنا مما يتنافى والقواعد والأعراف العربية السائدة .

لذلك لم يجد بداً من أن يقف ويقسم له هو الآخر قسماً أنه « لن يعيش في وطن تعيش أنت فيه » .

ومن ثم فبدلاً من أن يتجه أحمد بن يوسف الى برقة الحمراء توجه جنوباً الى تشاد واحتل المنطقة الشمالية منها ونصب نفسه سلطاناً عليها ومكث فترة من الزمن ثم أخذ يتجه جنوباً لتوسيع رقعة نفوذه علماً بانه كانت ثمة أطماع فرنسية في ثوب التبشير بالمسيحية في أدغال افريقيا .

وفي إحدى الغزوات أصيب أحمد بن يوسف بجرح بليغ أدى الى وفاته .

وبعد سقوطه جريحاً أخذ يقول وهو يعاني سكرات الموت ويوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة :

« لو كان ها الطيحة ورا البردانه
من حاشن امكتبها الله سبحانه »

وكان يعني بذلك انه تمنى لو كانت هذه الاصابة في سبيل استرداد ناقته المفضلة (بردانة) التي كانت من خيار إبله المأخوذة من قبل العواقير لهان الأمر ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . وقد قال فيه الشاعر في تشاد حينذاك :

عند تكّت البارود في أم جنيبه
طاح مير ما عاد الزمان يجيبه
في أم جنايب
طاح فيه بن يوسف اخلاط الهايب
حصانه على دهم السرايا طايب
ويده على جبد الزناد دريبه

لقد سجل احمد بن يوسف صفحات بأحرف من نور قلما يأتي بها الزمن في تاريخ هذا الشعب العظيم المعتز بنفسه العزيز الجانب في كل زمان ومكان[1] .

---

(١) معظم أفراد الجالية الليبية في تشاد هم من أحفاد الرجال الذين قادهم احمد بن يوسف وبعضهم ممن لحق بهم مهاجرين بعد احتلال ليبيا من قبل ايطاليا فيما بعد .

كان امحمد بن يوسف جد صالح الأطيوش صاحب هذه الترجمة .

أنجبت حليمة ابنة أمحمد بن يوسف من الكيلاني الأطيوش صالحاً الذي رأى لأول مرة النور في منطقة اجدابيا سنة ١٨٧٨م وكان الابن الأكبر لوالديه .

وقد درس في كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم كغيره من شباب البادية الذين لم تتح لهم الظروف الملائمة وقتذاك للالتحاق بالمدارس والكليات مع العلم انه ما كانت توجد مدارس أو كليات تذكر إبان العهد العثماني الأخير اللهم الا البعض في مدينة طرابلس .

ومنذ الصبا تعلم الرماية وركوب الخيل فشبّ قوي البنية شديد العزم صموتاً قليل الكلام يستهجن الثرثرة والاسفاف في القول ، واذا تحدث أقنع سامعيه وحسم الموقف في المشاكل المعقدة . كان صالح الأطيوش متوسط القامة ، وتبدو عليه سمات الجد وصرامة الملامح في طيبة من ينشد استقامة الآخرين ، وحدة مزاج من لا يقبل الظلم والهوان أو الانحراف ، والتقيد بالعادات والأعراف العربية البدوية الصرفة . كان بسيط الهندام وممن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

هكذا نشأ المترجم له شديد الاعتزاز بالنفس وبالقوم يعيش على أرض صلبة حرة وفي بيئة أصيلة ومجتمع متماسك مترابط ذي سمات موحدة وقيم مشتركة أهّلته لأن يكون في طليعة القوم عندما نادى المنادي على الجهاد دفاعاً عن الديار والأعراض ، ولكي يتحمل الأعباء الثقيلة والمسئوليات الجسام في الاستنفار والتحريض وتنظيم الصفوف وحشد القوى وتوفير الامكانات وقيادة المجاهدين ضد أعتى القوى الاستعمارية الأوروبية في بداية هذا القرن .

أول عهده بالجهاد

كان صالح الأطيوش في أواخر سنة ١٩١١م شاباً في مقتبل العمر يقوم بزيارة لمدينة بنغازي قادماً اليها من برقة البيضاء .

وتشاء الصدف أن يشاهد بداية الغزو الأيطالي ويصاب بجرح في أول معركة ضد الطليان الغزاة في معركة جليانة وكأنه كان على موعد مع القدر .

كان والده كما أسلفنا قائمقاماً في واحة الكفرة منذ سنة ١٩٠٨م ، وكان نفوذ هذه الواحة الاداري يمتد آنئذ الى كاوار ووادي بأواسط افريقيا عندما كان الصراع على أشده بين المجاهدين الليبيين والقوات الفرنسية .

وعندما سمع أنباء احتمال الغزو شد الكيلاني الأطيوش الرحال عائداً الى الشمال للاشتراك في القتال ، ولكن القدر كان يحمل له ما لم يكن في الحسبان .

ولم تكن هذه الاعتبارات غائبة عن الأذهان فقد كان الجميع يعلمون بأن الاستعمار الايطالي ظل يتغلغل اقتصادياً ويهيء للاحتلال العسكري .

أقبلت قافلة صالح الأطيوش الى مدينة بنغازي في أواخر صيف ١٩١١م لغرض تجاري على ما يبدو ، ووجدت الجو مكفهراً ، والناس تتزاحم أمام الفندق القديم للحصول على البنادق (الموزر) والذخيرة استعداداً للقاء الغزاة .

كان ميناء بنغازي يموج بنحو ١٩ قطعة حربية ايطالية راسية على شكل سهم ، وقد أرسل الجنرال اميليو ، القائد العسكري الإيطالي إنذاراً يطالب برفع الراية البيضاء أو يهدم المدينة بالقصف البحري .

وقد رفضت هذه المدينة الخالدة العنيدة الانذار وشرع الأسطول الاستعماري يرسل الحمم الملتهبة على المدينة الوادعة ناشراً فيها الخراب والدمار ، وعقب ذلك بدأ إنزال القوات العسكرية على شواطىء جليانة واتخذت مواقعها هناك . وقد تصدى الناس للغزاة وأوثق الكثيرون الأربطة حول أرجلهم حتى لا تسول لهم أنفسهم الانسحاب أمام العدو .

وتبادل الفريقان إطلاق النيران الى أن نفدت ذخيرة المجاهدين ، وتقدم جنود العدو على جثثهم نحو قصر البركة عبر سبخة الكيش فاحتلوه بعد استسلام ثلة من جنود

الأتراك ، وفرار قائد الحامية التركية ومتصرف المدينة العثماني وحوالى ٢٠٠ جندي تركي الى هضبة بنينة[1] وبعد يومين أنزل الطليان أفواجاً أخرى على شاطىء الصابري .

وما ان انتظمت صفوف المستعمرين استعداداً للهجوم حتى أصلاهم العرب الكامنون وراء الكثبان الرملية المجاورة بصليات من الرصاص بشدة حتى تشتت شملهم ثم اختلط الفريقان واستخدموا السلاح الأبيض في معركة ضارية.وعندما أوشك المجاهدون على الإجهاز على الطوابير التي التجأت الى البحر فراراً من الموت حتى أخذت مدفعية الأسطول تقصف بلا تمييز الجموع المتقاتلة فأحدثت خسائر فادحة في الطرفين . وانسحب المجاهدون الى بوعطني والسلاوي واسترد الطليان مواقعهم ، وضربوا سوراً حول المدينة محاطاً باستحكامات دفاعية يحيط به حصار من المجاهدين ، واستمر الفر والكر .

أصيب صالح الأطيوش في هذه المعركة إصابة أفقدته عينه اليمنى ، وعاد الى برقة البيضاء جريحاً بعين غطشى لم تر النور عبر مسالك مظلمة لا يهتدي فيها الى الطريق . وكان يوماً مظلماً حالكاً اضطربت فيه الأمور وأدركها الخلل .

لقد كان موقف العثمانيين سلبياً . حكموا البلاد إبان

---

(١) انتظر الأتراك بقيادة عزيز المصري في بنغازي مدة ٥ أشهر في بنينة ثم انسحبوا نهائياً من ليبيا بموجب اتفاقية لوزان وعادوا الى تركيا .

السلم ، وتخلوا عنها وقت الحرب . وهكذا قرر الناس أن يعتمدوا على أنفسهم بعد الله ، وينظموا مقاومة شعبية بامكاناتهم الخاصة[1] .

واستمرت الحال على ما هي عليه من كر وفر . وعاد صالح الأطيوش الى المنتجع ، وأخبر القوم بنبأ الغزو الإيطالي واستبسال المجاهدين في معارك جليانة والصابري وغيرها ، وقصف الايطاليين لمدينة بنغازي التي تحولت الى أنقاض . وأخبروه أن والده الكيلاني الذي كان يتعطش للجهاد قد توفي ظمآن في صحراء معطشة لا ماء فيها ما بين الكفرة وجالو .

واستجابة للنداء الوطني دعا الى وجوب إعداد العدة لمقاومة الغزو الاستعماري الاستيطاني التسلطي .

وقد أجمع القوم على ترشيحه ليتولى القيادة في منطقته لما كان يتحلى به من نبل الشمائل كالصبر والفطنة وسعة الحيلة عند الشدائد .

ومنذ ذلك الحين أخذ يشحذ الهمم وينظم الصفوف

---

(١) دارت معركة ثانية بين الفريقين أسفرت عن مقتل العديد من الطليان لدرجة أن حاول الجنرال اميليو الفرار واستعد كبار ضباطه لركوب البوارج غير أن العرب الذين ينقصهم التدريب العسكري لم يفكروا في السيطرة فانسحبوا الى بنينة . وتكررت العمليات ولكن النقاط الامامية داخل سور المدينة أحبطت كل المحاولات وأجبرت المجاهدين على التراجع .

ويقود قوافل المجاهدين الى ميادين القتال .

وقد نازل العدو في معارك عدة في برقة البيضاء والخشنة وسرت . ومن أشهرها معركة الخدّة ومعركة ارشاح ومعركة العويجة ومعركة اجدابيا ومعركة بئر بلال الأولى ،

ومعركة البريقة ومعركة بئر بلال الثانية ومعركة البريقة الثانية . ومعركة اجدابيا الثانية ، ومعركة القرضابية . وكان تارة يحرز النصر ، وتارة يمنى بالهزيمة . ثم نظم المقاومة بالصحراء واتخذ جبال الهروج مقراً له ، ومن هناك أخذ ينطلق الى أقصى الشمال ويثخن في قوات الاستعمار الإيطالي مدة عشرين سنة . وكانت آخر معركة له في الكفرة .

وسنضفي بعض التفاصيل لهذه المعارك في الفصول التالية .

نقطة الانطلاق

(معركة النوفلية - القرة)

عاد صالح الأطيوش جريحاً فاقداً إحدى عينيه ماراً بمنتجعات المغاربة الممتدة من شرق مدينة اجدابيا حتى مشارف مدينة سرت وعلى طول منطقة الخليج .

واتخذ منطقة النوفلية نقطة انطلاق وأخذ منذ ذلك الحين يشحذ الهمم ويستنفر الحشود ويعد العدة لمواجهة عدو شرس لئيم يملك أسلحة فتاكة ينوي احتلال البلاد واستعباد الناس .

ولبى المناضلون الأفذاذ النداء ، كل ينتجع في منطقته ويرابط استعداداً للبذل والتضحية وأداء الواجب في سبيل الوطن .

في هذه الأثناء كانت المعارك متواصلة بين المجاهدين الليبيين والمستعمرين الايطاليين من أقصى الغرب الى أقصى الشرق عبر الشريط الساحلي الذي تحول فيه معظم أفراد

الشعب الى جيش مقاتل في كل مكان وطأته أقدام العدو الذي وصلت أعداد قواته نحو (١٥٠) ألف مقاتل ايطالي ومصوعي حبشي ومرتزق .

وتميزت هذه الفترة باحتلال فرنسا لجبال تيبستي وانسحاب المجاهدين ، أو من تبقى منهم في الجنوب الى الشمال وحلول كوارث طبيعية في برقة .

وفي هذه الأثناء تحركت الجحافل العسكرية من الغرب وأخرى من الشرق لبسط نفوذها على الشريط الساحلي وتأمين المواصلات في منطقة خليج سرت .

ومن جهة الشرق اجتاحت قوات الجنرال اميليوسهول مسوس ثم انطلقت الى الزويتينة حيث جرت معركة سميت (الرمصاء) التي مني فيها المجاهدون بهزيمة فادحة بسبب قصف الأسطول الإيطالي من البحر والإطباق من جهة الجنوب .

تقدم الايطاليون الى اجدابيا واستولوا عليها ايضاً بعد مقاومة طفيفة على (أرض غريدة الحداد) ثم واصلوا الزحف واستولوا على زاوية القطفية بعد مقاومة شديدة بمنطقة بوجدارية وانسحبت فلول المجاهدين الى (عين الناقة) .

وتمكنت القوات الايطالية القادمة من جهة الغرب من الاستيلاء على النوفلية يوم ١٣ مارس ١٩١٤م بعد معركة

عنيفة سميت معركة الخدة .

وإزاء هذه الصولة العسكرية للعدو نسق المجاهدون صفوفهم وقرروا إزعاج خطوط مواصلات الايطاليين من جهة ، ومن جهة أخرى القيام بتحرير المناطق المحتلة بضربات منتظمة مركّزة .

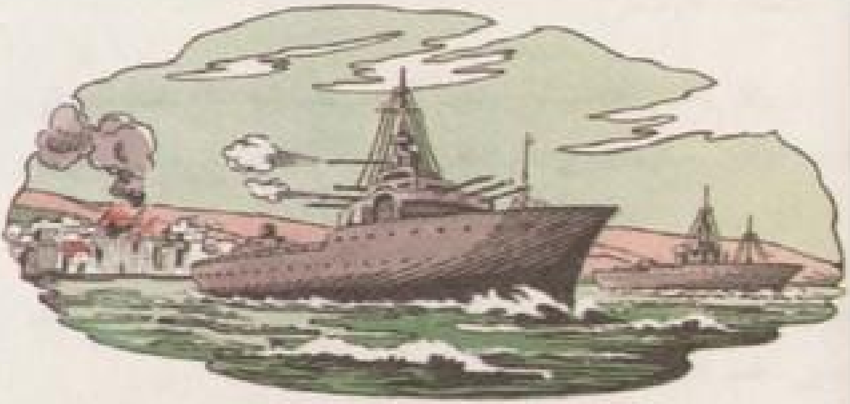

في بداية الاجتياح اعتقل الايطاليون عائلة سيف النصر في المنطقة الوسطى .

ولا يخفى أن ثمة روابط تربط المغاربة بالصف الفوقي وهم أولاد سليمان والقذاذفة وورفلة بقيادة سيف النصر .

وقد بعث عبد الجليل سيف النصر الى صالح الاطيوش يطلب منه تخفيف حدة القتال أو عقد شبه هدنة وهمية حتى يتسنى لهم الفكاك من الأسر .

واستجابة لهذا الطلب والتزاماً بالروابط الأخوية وايفاء بالعهود والمواثيق القبلية ولكي لا يتورط صالح الاطيوش شخصياً في توقيع هدنة مع الايطاليين ، فقد شكل وفداً برئاسة عمه سعيد الاطيوش وعضوية احميدة وعبد الهادي وآخرين الذين انتقلوا الى سرت للتفاوض مع السلطات الايطالية

هناك . وقد توصل الوفد بالفعل الى إبرام هدنة مع الطليان الأمر الذي خفف الضغط عن عائلة سيف النصر ، وقد أخلي سبيلهم شريطة عدم مغادرتهم مدينة سرت مما مكن عبد الجليل سيف النصر ورجاله من الفرار والالتحاق بقومهم لتنظيم صفوفهم وإعدادهم للجهاد .

انتهز الايطاليون فرصة الهدنة المبرمة مع ممثلي صالح الاطيوش فقاموا بالزحف والتوسع متجهين شطر النوفلية باعتبارها نقطة ارتكاز أمامية لتجمعات المجاهدين .

وعندما علم صالح الاطيوش بخروج الايطاليين من سرت نحو الشرق تأكد له سوء نواياهم وانتهاك شروط الهدنة التي التزموا فيها بعدم الخروج من سرت ومن ثم حشد لهم الرجال في منطقة النوفلية لمواجهتهم بقيادة عمه عبد الله الاطيوش . ومن جهة أخرى شكل دوريات للانذار المبكر التي ظلت ترابط شمال النوفلية .

ركّز العدو على منطقة النوفلية التي أضحت قلعة رئيسية منيعة ينطلق منها المجاهدون تارة للاغارة على قوافله وتارة لاسترداد مناطق محتلة يسيطر عليها العدو .

تحركت القوات الايطالية وتقدمت واصطدمت طلائعها

بدوريات المجاهدين واشتبكت معهم في معركة أدت الى هزيمة دوريات العدو (في أم اللفاع) .

ولما علم المجاهدون بذلك تحركوا من النوفلية الى منطقة الخدة الواقعة شمال النوفلية لاتخاذ مواقعهم هناك للدفاع عن المنطقة .

وفي ضحى اليوم التالي وصلت قوات العدو الرئيسية واشتبكت مع المجاهدين في معركة ضارية استمرت حتى حلول الظلام سقط فيها ٥٢ شهيداً وأعداد هائلة من الايطاليين والاحباش . وكان من بين الشهداء عبد الله الاطيوش وسليمان بو اشعلة بهيج وادريس عبد الرحمن عقبة وصالح مبارك برنية وسعد عبد القادر برنية وعثمان الجبالي شويقي وسالم بعيو الشيخي وحمد اللافي الشيخي وسليم سعد القبائلي وصالح خليل الدائخ والسنوسي الجريو وغيرهم .

ونظراً لنفاد الذخيرة وعدم تكافؤ الاسلحة دارت الدائرة على المجاهدين فاضطروا الى الانسحاب تحت جنح الظلام واحتل المستعمرون النوفلية وأقاموا فيها .

وقد استعمل الايطاليون مرسى العويجة لإمداد قواتهم بالاسلحة والذخيرة والتموين عن طريق البحر .

جمع المجاهدون أنفسهم وأقاموا معسكراتهم في وادي

العامرة شمال شرق النوفلية وأخذوا في مناوشة قوات الايطاليين وإزعاجها داخل النوفلية وخارجها .

وفي منطقة أرشاح وقعت معركة بين الفريقين تمكن فيها المجاهدون من إنزال الهزيمة بالايطاليين واستولوا على بعض الأسلحة والذخيرة والجياد .

وفي هذه الاثناء قرر صالح الاطيوش علاوة على استمرار الازعاج الدائم للقوات المتواجدة بالنوفلية ضرب خطوط مواصلاتها لمنع وصول الامدادات اليها فتقرر مهاجمة مرسى العويجة للاستيلاء عليها . فأنفذ قوة لهذا الغرض واشتبكت مع العدو في معركة استشهد فيها الكثيرون ودارت الدائرة على الايطاليين ، وكان من بين الشهداء جبريل عمر ابو سدره ومحمد يونس أشعلة وكثيرون غيرهم .

وقعت هذه المعركة يوم ٢٤ ابريل ١٩١٤ م

استمر المجاهدون في اعتراض قوافل العدو وازعاج خطوط مواصلاته مما شلّ من قدرته على تموين قواته عن طريق البحر ولا سيما بعد معركة العويجة وتركيز المجاهدين على مهاجمتها بصورة منتظمة .

ولذلك قرر العدو إرسال قوافل عن طريق البر من سرت لإمداد الحامية باحتياجاتها من الإعاشة والسلاح .

وعندما علم المجاهدون بهذه القافلة من قبل رجال قبيلة الزياينة وهم بشير محمد وحسن أبو بكر محمد وخميس عثمان اتخذت قيادة المجاهدين الاحتياطات اللازمة لمجابهتهم ومنعهم من الوصول الى حامية النوفلية فارسلوا لملاقاتهم قوة من المجاهدين ومن بينهم مجموعة من أولاد أبي سيف فالتقوا بهم في منطقة الحمر وهي مقر قبيلة الزياينة ودارت معركة بين الطرفين انتهت بدحر القوات الايطالية والاستيلاء على القافلة . وازاء هذا الحصار المحكم اضطر العدو الى الانسحاب من النوفلية غرباً .

وقد نوه بذلك الجنرال غراسياني في كتابه (نحو فزان) في ص ١٦ عن اعتقال الايطاليين لأسرة سيف النصر وعن حصار المغاربة لحامية النوفلية حيث قال :

(وكذلك الحال بالنسبة لأولاد سليمان الذين كانت قد عملت الحكومة على إثارتهم في ذلك الوقت بسجنها أسرة سيف النصر فانهم ولو انهم قد ارتدوا الى جبال الهروج قد بقوا مسلحين ومعادين لنا .

(واخيراً فإن قبيلة المغاربة الذين هم بدو رحل آخرون لهم اهميتهم ويقيمون في سرت رغماً من الدرس القاسي الذي تلقوه في معركة النوفلية[١] لم يعترفوا بهزيمتهم . وليس هذا

---

(١) يقصد الجنرال غراسياني بذلك معركة الخدة .

فحسب بل استمروا في عدائهم وقاموا بمهاجمة حامية النوفلية) .

وانتقل المجاهدون غرباً يتعقبون آثار العدو وقد أقاموا معسكراتهم في منطقة (امهات الدوّاي) ومنها تحركوا الى وادي هراوة ثم الى (بوهادي) حيث أقاموا معسكراتهم هناك .

بدأ المجاهدون اتصالاتهم بأهل المنطقة عرضين إياهم للالتحاق بصفوف المجاهدين وقد لبى الكثيرون النداء .

ولما علمت السلطات الايطالية بذلك قررت إنزال ضربة بتجمعات المجاهدين في (بوهادي) قبل أن تقوى شوكتهم ويستشري نفوذهم فأرسلت قوة لمهاجمتهم . وقد داهمت هذه القوة - قبل وصولها الى مواقع المجاهدين - منتجعاً للسواوة فأبادتهم عن آخرهم وأضرمت النيران في مخيماتهم ، ثم اشتبكت بعد ذلك مع المجاهدين في معركة سميت معركة (بوهادي) انتصر فيها المجاهدون على قوات الغزو الايطالية وكبدوها خسائر فادحة وسقط من المجاهدين الكثيرون من بينهم السنوسي سعيد الاطيوش والمهدي سليمان بو اشعله وأبو الحسن أبو حواء الدايخ وعوض خليل الدايخ وأبو فاخرة صوان وعبد الله رمضان الشيخي وغيرهم .

وفي ناحية الشرق هاجم المجاهدون التحصينات

الايطالية في اجدابيا وتغلبوا على الطليان الذين انسحبوا شرقاً ولاحقوهم حتى ميناء الزويتينة . كما هاجم المجاهدون حصون الإيطاليين في القطفية فشتتوا جموعهم وأبادوا عساكرهم واستردوا المنطقة .

وعوداً على بدء حاول الايطاليون استعادة المنطقة الوسطى وبسط نفوذهم عليها بعد أن أمست شوكة في حلق الاستعمار وطموحاته في استعباد الناس .

وعلى هذا قرر وزير المستعمرات الايطالي بناء على توصيات القيادة العسكرية إعداد حملة عسكرية مكثفة يشترك فيها عنصر محلي موال للطليان تهدف الى استعادة المنطقة الوسطى وبرقة البيضاء والقضاء على المجاهدين هناك .

كان المجاهدون ـ قبل ذلك قد استولوا على إبل خاصة برمضان السويحلي باعتباره عنصراً متعاوناً مع الايطاليين . الا أنه قد أرسل شقيقه حمد السويحلي لاستردادها وكان يحمل منه رسالة شفهية الى صالح الاطيوش يتعهد فيها أنه سوف يخذل الايطاليين وينضم الى المجاهدين في أول فرصة تتاح له .

وبناء على هذا التعهد الذي اعتبره المجاهدون قوة جديدة من شأنها أن تعزز صفوف المجاهدين قاموا بترجيع الابل الى السويحلي ، ولا بد لنا أن ننوه بأنه قد تصادف وجود

حمد السويحلي مع المجاهدين في أثناء معركة (بوهادي) وأصيب يومذاك بجرح .

وإزاء فشل القوات الايطالية المرابطة في سرت من تحقيق نتائج حربية إيجابية ضد المجاهدين قررت القيادة الايطالية إرسال نجدة الى سرت لدحر المجاهدين وكان على رأسها العقيد ميامي الذي التقى بالمجاهدين في معركة كبرى سميت بمعركة القرضابية .

وقبل سرد أحداث القرضابية لا بد لنا من ذكر بعض الاشعار التي قيلت عن المعارك التي سبقتها .

قال الشاعر درياق :

زينك يوم يوم النوفلية
يوم ثناه ديّرع البعيد
جوه اعطاش يا اهلاك جيّه
شربوا كرع ردّوا ع الهويد
من ام اللفاع لعند الخطيّة
حتى الخيل كادوهن هيد
وتموا كيف ذبان الخطّية
بهم غرّبت يا طابع سعيد[1]

---

(١) كان الشاعر يشير بذلك الى الهدنة التي أبرمها مع السلطات الايطالية سعيد الاطيوش ، كما سبق الشرح في الفصل السابق .

يا الاسلام خذوها وصية

رآه الحي عمره ما يزيد

اللي مات ومجاهد بنية

عطاه الله يستقبل شهيد

واللي عاش في همّه قوية

كيف الحج في موسم العيد

امعاك اجواد واقلاد وحية

من اول يوم خلوهم ربيد

وانعنّك ذيب وهمّ شليّة

تسرّب في ضناها بالوحيد

●

وقال الشاعر معتوق العبيدي :

زينك يوم يوما دايشنّه

بين العرق والروس الكبار

الخايف خاف قبلاً يصهدنه

ترامن فيه رغبن بالعيار

الطايح طاح والناجي خذنّه

يكنّن فيه نين الظل حار(١)

---

(١) المقصود بذلك المعركة التي وقعت بين طلائع قوات الطليان ودورية من المجاهدين قبل يوم واحد من المعركة الرئيسية في الهدة .

او ثـاني يوم في الخـدة معنّا
بـلا دخان شـاطت فيـه نـار
رسم دلال سـوقـه واضبحنّه
او ثمنّ فيـه يـدّعكن اصـدار
ان كان الوطن تخبـر صادفنّه
ويـن المحقّن بالعلوان دار(١)
اول قنو(٢) جاهن شلبـطنّـه
او ثـاني قنـو خلنـه دمـار
او ثـالث قنو وقتـاً شلّمنّه
خص العلف والـدبار حـار
لا جـاويـد وارعـاة الحضنّه
تمـوا كيف حد فات الغمـار
ولا مجـروح طـايـح سيينّه
نـين اكملن واسـواد النهـار
الحـاصـل حق واطيهن عـطنـةّ
ودارن شبـر عمره مـا انـدار
الميّت مـات واستقبـل الجنّـة
والـلي عـاش روّح بـافتخـار

---

(١) المحقّن منطقة بوادي العقر عاطلة بتلال وهضاب حيث وقعت المعركة
(٢) القنو يعني القوات العسكرية التي يدفع بها العدو الى المعركة .

او يوم ارشاح انكان انسال عنّه
ينقى الشّيب من رؤوس الكبار
كبير العقد[1] بدري ريّشنّه
وعشرة بين غيطان القرار
او خذنّه سكت ع الشقه رمنّه
لولا البنب ما خلّن حار
او رابع يوم عند التفل[2] جنّه
ايهدن فوق من شلق او فار
يوما دار في الطليان رنّه
او راحوا فيه فرساناً اخيار
او خامس يوم عند الحمر جنّه
اولاد ابو سيف الاشراف الحرار
كم سبيوس[3] ابدمّه بحوسنّه
امجوزر سمح وادقر ملقصار

●

ووصف الشاعر حافظ المعداني معركة الخدّة وصفاً شيقاً ، وبينّ كيف كان المجاهدون يتهافتون بهمة وحماسة على ميدان

---

(١) كبير العقد يعني قائد قوات العدو .

(٢) التفل يعني بذلك أعشاب البحر التي يرمى بها المد والجزر على الشاطىء . ويعني بذلك شاطىء مرسى العويجة .

(٣) السبيوس معناه الليبي المرتزق المجنّد مع الطليان .

قصف المدفعية الايطالية سنة ١٩١١ م

الوغى . وقد استشهد في هذه المعركة العديد من المجاهدين على رأسهم عبد الله علي الاطيوش الذي كناه الشاعر (بو علي) نسبة لوالده علي الاطيوش :

مع بو علي حرّدن بالجناح

او بوسير ناح

والخايف الكل في ظراهن ارتاح

مع بو علي جرّدن ما تخاطن

معركة جليانة .. الغزاة الطليان يوم نزولهم ١٩١١م

اوجن يلتحاطن

رابطات ع الزاوية والمعاطن

أبدى ضربهن في الحبش والقباطن

وتمت سماح الخده ومرباط علوة ارشاح

جرّدن م البساط

او دارت غطاط على كل من جاظرة في الرباط

مدافع الطليان دارن اشواط

والذلال ذاح او جوها اللي موالفين الكساح

مع بو علي جرّدن من بعيد

مشاهير في ملف ناير جديد

ابهم يفهدن سالمات الجريد

اكباش النطاح

او عاد الحبش بينهم طاح طاح

جــرّدن شــيء داوى

او دارن زداوي على كل من جاظرة في الرساوي

عليها ولد وين تَقر الداوي

افعال اسماح

حسب قسم بو عقد داير مناح

او عاد الحبش بينهم يستجلّوا

الطايح يخلوا

مقاليد لسلام مابوا يولوا

او تموا على كل نقطة ايطلوا

او جابو سلاح

او جابو مقاويد منهم اسماح(١)

●

---

(١) المقصود من ذلك أن المجاهدين قد غنموا الكثير من الاسلحة والخيول الاصيلة يوم معركة ارشاح .

ولا بد لنا من أن نستشهد بأقوال العدو في هذا الشأن فقد ذكر الجنرال غراسياني ما يلي :

« أصبحت حكومة طرابلس الغرب باستيلائها على مرزق مسيطرة على جميع اراضي المستعمرة ولكنها لم تكن قد هزمت بعد البدو الرحل المقيمين في القبائل والبدو المقيمين في سرت الذين كانوا في جميع الاوقات المسيطرين على جميع الاراضي الليبية الداخلية وسادتها الحقيقيين » .

معركة القرضابية

كان شتاء ١٩١٤ م قارساً من أقسى الفترات التي تمر بالكفاح الوطني ، إذ تخللته عدّة عوامل عسيرة وتميز بالكر والفر بين قوات المستعمرين والمجاهدين . في الجهة الغربية اجتاحت القوات الايطالية إقليم فزان بينما وصلت طلائع الطليان من جهة الشرق الى الوادي الفارغ .

وقد أغراهم هذا التقدم أن يضاعفوا من تكثيف الحملات على مواقع المجاهدين في خليج سرت وسهول بنغازي والجبل الأخضر .

وأكثر ما كان يشغل بال الاستعمار هو تأمين مسيرة القوافل ما بين طرابلس وبرقة ومن ثم وضع كل ثقله للقضاء على نشاط الثوار في منطقة الخليج .

لقد بلع الاستعمار أكثر مما يستطيع هضمه في المنطقة الشمالية في حين توقف في حلقه ما ازدرده في المنطقة الوسطى

وكاد يسبب له اختناقاً يقطع أنفاسه .

تولى الجنرال اميليو القيادة العامة في إقليم برقة وادعى بتبجح أنه استطاع (تطهير) المنطقة إلا من بعض الجيوب القليلة التي يمكن القضاء عليها بسهولة ويسر ، ويتم له بذلك الانتصار النهائي . وبناء على ذلك رسم خطة ترمي الى ارسال ثلاثة محاور عسكرية ، قسم يتجه شرقاً لقفل الحدود مع مصر ومصادرة تجارة القوافل والسيطرة على البطنان ، ومحور يتجه جنوباً لاحتلال زاوية العرقوب ثم المخيلي باعتباره قاعدة للتموين ، ومحور يتجه غرباً لضرب مواقع المجاهدين في اجدابيا .

كما أعدت القيادة الايطالية في طرابلس خطة بناء على اقتراح العقيد انطونيو ميامي الخبير بشؤون الصحراء تهدف الى استعادة منطقة (النوفلية) بحملة عسكرية مكثفة يشترك فيها عنصر (محلي) ـ كما أسلفنا . وقد تم اختيار رمضان السويحلي لهذه المهمة ، وكان يشغل مدير ناحية ، وسبق له أن فاوض المجاهدين في النوفلية ونجح في استرداد إبل له وقعت في حوزتهم .

وقد أبدى السويحلي تقبلاً للفكرة بشرط أن تقوم ايطاليا بتجنيد جيش من العرب تتولى الانفاق على تموينهم وتسليحهم

وتناط به قيادتهم . وكان له ما أراد .

وقد سبق للسويحلي أن أبلغ المجاهدين سراً أنه ينوي أن يخذل الايطاليين وينضم الى صفوف المجاهدين عندما تحين الفرصة المواتية .

وبينما كانت الاستعدادات تجري في مدينة مصراته لإعداد المجندين عسكرياً كان الجنرال اميليو يشرف على تنفيذ الخطة ذات المحاور الثلاثة السالفة الذكر . وقدر للمحور الثالث أن يسترد اجدابيا بعد انسحاب المجاهدين جنوباً حيث انتجعوا في المنحدرات الجنوبية . وتدخل عامل جديد اكثر بطشاً واشد ضراوة من العدو ، فقد حلت بالبلاد مجاعة وتفشت بين الناس أوبئة الطاعون والجدري التي أودت بحياة الكثيرين في ديار انعدم فيها الطب والعلاج ، وصاحب ذلك عدو شرس أشد فتكاً بالمجاهدين . . . إنه الجفاف والقحط والجراد .

لقد أخفق موسم الحبوب خلال سنتين متواليتين في برقة وطرابلس وسيطر الطليان على الاسواق الرئيسية في الشمال والغرب ،وكان مصدر التموين من الدقيق يأتي عن طريق الموانىء المصرية ولكنه كان غير كاف لمواجهة مسغبة المجاعة . وكانت إحصائية الوفيات مرتفعة جداً . فقد ذكر (لو يللو) الكاتب الايطالي المعاصر لهاتيك الفترة أن عدد الوفيات بلغت

(١٨٠) ألف وفاة ببرقة سنة ١٩١٤ م[١]

ورغم انسحاب العثمانيين المبكر وتطور الاسلحة الايطالية وانتشار الأوبئة وحلول المجاعة لم يفقد المجاهدون اتزانهم ورباطة جأشهم . وفي هذه السنة أوفد السيد أحمد الشريف السيد صفي الدين الى دور المغاربة بأسلحة حديثة بواسطة غواصات كانت ارسلتها تركيا من الاستانة[٢] .

واستبشر صالح الاطيوش خيراً ولاحت في الأفق بوادر طيبة وسرت في المجاهدين روح جديدة جعلتهم يتغلبون على كوارث الطبيعة التي أفنت منهم أعداداً كبيرة ، إذ كان السلاح

---

(١) RIVISTA COLONIALE كتاب ايطالي صدر حينذاك .

(٢) إن أحداً لا ينكر ما كان للسنوسية من دور إيجابي فعال في التحريض على الجهاد وقيادته ولا سيما في المناطق الشرقية . فقد قاد السيد أحمد الشريف الجهاد هناك ضد الانكليز في صحراء مصر الغربية حتى غادر البلاد الى تركيا سنة ١٩١٨ م .

ولكن تصحيحاً لما علق خطأ بأذهان الكثيرين من أن السيد صفي الدين هو الذي قاد (دور المغاربة) في معركة القرضابية فليس لذلك نصيب من الصحة ، وانما كان وجوده هناك مثل القيادة الرمزية باعتباره رجلاً مباركاً وممثلاً للسيد احمد الشريف يتباركون بآرائه ودعواته الصالحة ويسترشدون بها في النواحي الدينية علماً بأنه وبعض الاخوان السنوسية قد ساهموا مع المجاهدين في معركة القرضابية .

والحقيقة فان قيادة (دور المغاربة) في معركة القرضابية وغيرها كانت لصالح الاطيوش . وكل ما قيل بذلك يذكرنا بقول المثل الشعبي (الضرب للمحاميد والثناء لغومة) .

عزاء لهم وسلواناً على المحن التي حلت بهم . فأخذوا في الكر والمناجزة لدفع المستعمرين شرقاً والاستعداد لمواجهتهم من جهة الغرب . وفي النواحي الشرقية كانت ترابط قوات يتراوح عددها ما بين ثماني وعشر كتائب تتألف من الطليان والمصوع الاحباش .

وفي هذه الاثناء تواردت أنباء عن قدوم حملة عسكرية ايطالية من جهة مصراته .

وكانت هذه الحملة بقيادة العقيد انطونيو ميامي وتضم ٤٠٠٠ جندي وضابط ايطالي وعدداً مماثلاً من المصوع الأحباش وحوالى ٣٥٠٠ مجنّد ليبي بقيادة رمضان السويحلي كمحور رئيسي ، في حين توجهت فرقة أخرى بقيادة راسم كعبار عن طريق مزدة ، وتحركت فرقة أخرى بقيادة عبد النبي بالخير . وكان هذا الاخير قد أقنع الطليان أنه يعتزم التوجه الى بني وليد التي كان المجاهدون بقيادة حمد سيف النصر على وشك الوصول اليها . وقد أذن له العقيد ميامي .

وفي أثناء مسيرة جيش العقيد ميامي المجحفل لدك معاقل الثوار كان الايطاليون في الوسط محاطين من الميمنة والميسرة والمؤخرة بمجنّدي السويحلي .

وما إن وردت أنباء أخرى عن اقتراب الحملة العسكرية

حتى استنفر المجاهدون أنفسهم لملاقاة العدو .

والتقى الفريقان عند موقع القرضابية . وفي يوم ٢٥ ابريل ١٩١٥ م أوفد رمضان السويحلي اثنين من أعوانه وهما عمر بودبوس وعبد الملك في ثلة من الفرسان الى صالح الاطيوش لينذراه بكثافة القوات الايطالية ويخبراه بمدى ارتيابه في مقدرة المجاهدين على مواجهتها .

وفي خيمة القيادة بمعسكر المجاهدين وبحضور السيد صفي الدين والشيوخ طلب عمر بودبوس الاختلاء بصالح الاطيوش وهمس له في أذنه برسالة شفوية . فثار صالح الاطيوش واشتط شططاً أثار الانتباه .

وتساءل الحاضرون عن الأسباب فأخبرهم بأن السويحلي يهددنا بقوة الطليان التي لا نخشاها . . . . . وفي خضم هذه الأزمة أعلن بودبوس أنه لن يعود الى مرسله وقرر الانضمام الى المجاهدين بينما عاد عبد الملك الى السويحلي ليخبره بعدم رضوخ المجاهدين وبتحديهم لقوات الطليان .

وكان صالح الاطيوش يعتقد في هذه الأثناء أن إنذار السويحلي له يعتبر تحللاً من الوعد السابق الذي التزم به أن يخذل الطليان وينضم هو ومن كان معه من المجنّدين الى صفوف المجاهدين عندما يحين الظرف المناسب .

ولا يعلم بالسريرة إلا الله علام الغيوب . وما إن وصل الرسول الثاني عبد الملك الى السويحلي وعلم العقيد ميامي بعدم جدوى المفاوضات حتى أصدر أوامره للمدفعية أن تقصف مواقع المجاهدين .

وبعد القصف الشديد الذي أسفر عن استشهاد حوالى ١٥٠ شهيداً بدأ هجوم الطليان الذين اشتبكوا مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس استخدم فيها السلاح الابيض .

وكان يوماً مشهوداً أبلى فيه الطرفان وسقط في ميدان القتال الآلاف من القتلى والجرحى . وصال الفرسان وجالوا ضد جبهة العدو وفي مواجهة هدير المدافع المزمجرة وصليات نيران الرشاشات ولعلعة الرصاص المنهمر من هنا وهناك حتى توسطت الشمس في كبد السماء .

وعند القيلولة وصلت قوات من المجاهدين بقيادة حمد سيف النصر التي كانت قادمة من فزان عن طريق بني وليد حيث هاجمت مؤخرة القوات الايطالية .

وقد لاحت بوادر التململ في صفوف قوات الطليان حيث ظن العقيد ميامي أن ثمة حركة التفاف قد حاقت بمؤخرة قواته ، وحينئذ أصدر أوامره بالانسحاب غرباً ناحية سرت .

وعند ذلك برّ رمضان السويحلي بوعده السري الذي سبق وأن قطعه على نفسه للمجاهدين بأنه سيقاتل العدو عندما تتاح له الفرصة . وهكذا أصدر أوامره لاتباعه من المجندين أن يؤدوا واجبهم نحو وطنهم وشعبهم بأن يقاتلوا العدو المشترك الغاصب المحتل حيث اتاحت لهم الظروف ذلك .

وقد اشتد أوار المعركة ولعلعل الرصاص واشتد القصف المدفعي وتناثرت أشلاء عسكر الطليان والاحباش على أديم تلك البراري الواسعة الشاسعة واقتنع صالح الأطيوش بصدق نوايا السويحلي في تصويره لضخامة قوات العدو المهاجمة .

لقد دارت الدائرة على الطليان في معركة القرضابية على الرغم من استشهاد حوالى ٥٤٠ مجاهداً من بينهم : ابو القاسم ابو جبيهة ومحمد سليم البرعصي وأبو خطوة أبو لعيج ومحمد ابو حرق وغيرهم .

أحرز المجاهدون يومئذ انتصاراً مبيناً وسقط الآلاف من جنود وضباط العدو وأصيب العقيد ميامي قائد الحملة بجرح .

وعندما أحس العدو بهول المعركة وتساقط جنوده وضباطه صرعى يحصدهم الرصاص وتمزقهم الخناجر بلا رحمة انسل العقيد ميامي مع حوالى ٥٠٠ من جنوده وضباطه ولاذ بالفرار غرباً الى سرت .

وغنم المجاهدون ست بطاريات مدفعية بذخائرها كاملة وقافلة سيارات تموين ومصرفاً (خزينة) و (٥٠٠٠) مدفع رشاش و٢٠,٠٠٠ بندقية ومليون طلقة[١] .

لقد أسفرت معركة القرضابية التي ساهم فيها مجاهدون من مختلف فئات الشعب عن عدة اعتبارات نفسية ومعنوية وأثبتت للاستعمار الغبي عدم جدوى استخدام (العنصر المحلي) في ضرب إخوة أشقاء له في مجتمع عربي مسلم متماسك مترابط متجانس الإحساس وموحد الغايات .

---

(١) راجع كتاب : La libia in vent anni di occupazione italiana.

من ناحية معنوية كانت هزيمة العدو من الأسباب التي أدت الى استقالة حكومة جوليتي على أثر مطالبة الأحزاب الايطالية له بوجوب الانسحاب من الصحراء الليبية غير المجدية التي كلفت الشعب الايطالي ثمناً باهظ التكاليف .

صولة المجاهدين

كانت معركة القرضابية قد وحّدت الجهود وأمدت المجاهدين بقوة من عندها ، فتوالت انتصاراتهم في الشرق والغرب ضد الاستعمار الايطالي ثم الاستعمار الانجليزي في صحراء مصر الغربية .

وفي المنطقة الشرقية أحرز المجاهدون انتصارات باهرة ضد القوات الايطالية . ثم انطلق السيد أحمد الشريف عبر البطنان نحو هضبة السلوم واستولى على القاعدة البريطانية التي استسلم بعض من جنودها ولاذ الباقي بالفرار . وكذلك الحال مع قوات الخديوي التي انضم قسم منها بقيادة الضابط المصري محمد صالح حرب الى المجاهدين .

ودارت المعارك العديدة بين المجاهدين والانكليز في مناطق أم الرخم ووادي ماجد وبئر الصريحات وبو تونس

وغيرها ثم انقسمت هذه القوات إلى قسمين ، توجه القسم الأول إلى سيوة وتمركز القسم الثاني في مواقعه بمرسى مطروح . وكان الغرض من هذه الحملة يهدف إلى تحرير طرق القوافل من ناحية ، ومن ناحية أخرى التخفيف من ضغط الحلفاء على القوات العثمانية التي تقاتل على ضفاف قناة السويس بحجز أكبر قوة لهم في الصحراء الغربية .

وقد خففت حملة السيد احمد الشريف ـ كما يقول رتشارد ايفانز ـ من ضغط جنود الامبراطورية على العثمانيين وذلك بتجميدهم ما يقارب من ٣٥ ألف جندي بريطاني واسترالي وهندي وجنوب افريقي مدة من الزمن في وقت كانت الحاجة ماسة اليهم في ميادين أخرى أكثر أهمية . وقد أعدت بريطانيا لهذا الغرض جيشاً كبيراً في الواحات الخارجة بقيادة الجنرال ماكسويل ليشن منها هجوماً على الواحات الداخلة .

وفي الجنوب وصلت قوات السيد احمد الشريف الى واحة سيوه وواصلت الزحف الى الفرافرة والواحات الداخلة والخارجة .

واستمرت حرب العصابات بين الطرفين منذ أواخر ١٩١٥م إلى بداية ١٩١٧م[١] . وقد ساء مركز المجاهدين

(١) حاول السيد احمد الشريف استقطاب أهل الواحات للانضمام اليه ، ولكنه لم يلاق تشجيعاً . وانقطع عنه المدد بعد تولي السيد ادريس =

بوجودهم في أراضٍ منبسطة ومكشوفة للقوات البريطانية الآلية المجحفلة وتفشي أمراض الملاريا بين الرجال وإبادة معظم الدواب ، وتم الانسحاب إلى جنوب ليبيا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة، إذ لم ينج من الحملة وعدد رجالها ٤٠٠ مجاهد سوى ٣٠٠ فقط .

وفي حين كانت المعارك تدور على أشدها هنا وهناك فقد زار السيد ادريس السنوسي نائب أحمد الشريف ، زار اللورد كتشنير الذي استقبله استقبالاً ودياً في فبراير سنة ١٩١٥ م وشرح له وجهة نظره على الحدود المصرية ومدى الخلاف في الرأي بينه وبين السيد أحمد الشريف ، وقد لقي هذا الموقف ارتياحاً لدى الدوائر البريطانية ـ كما يقول ايفانز ـ وبذلك مهدت له الطريق لزعامة المجاهدين في ليبيا . وبعد ذلك رحل السيد ادريس الى السلوم تخفره سفن بريطانية حربية على طول الساحل وترتب على ذلك توقيع اتفاقية الزويتينة فيما بعد ، أي بعد الوصول الى اجدابيا التي أقام بها واتخذها مركزاً .

أما في مدينة سرت ، بعد أن علمت السلطات الاستعمارية بأنباء هزيمة العقيد ميامي في واقعة القرضابية فقد لجأت الى الاعتداء على السكان الآمنين ونفذت حكم الاعدام

= السنوسي الامارة في برقة وإبرامه الصلح مع الانكليز والطليان في الزويتينة ، ثم هزيمة الأتراك في قناة السويس وفلسطين وعدم تكافؤ القوى .

في حوالى ٦٥٠ شخصاً دون محاكمة ، كما قامت باجراءات قمع مماثلة في مدينة مصراته .

كان عبد النبي بالخير قد انضم الى صفوف المجاهدين بعد أن قام صالح الأطيوش بتسوية الخلاف بينه وبين حمد سيف النصر بعد معركة القرضابية مباشرة . وقد انتظمت صفوف المجاهدين بعد حصولهم على أسلحة كافية وقرروا الانطلاق غرباً وشرقاً .

بعد هزيمة ايطاليا في القرضابية وتطهير سرت انسحبت القوات الايطالية من مناطق تاورغا ومصراته واورفلة وترهونة والقصبات خلال مايو ١٩١٥م . اتجه صالح الأطيوش الى النوفلية لغرض السيطرة والتصدي لأي هجوم محتمل من الشرق ، بينما انتقل رمضان السويحلي ومن معه من المجاهدين الى جهة الغرب ورافقهم السيد صفي الدين وبعض الاخوان السنوسية وبعض المجاهدين من أهل الشرق .

وفي هذه الأثناء حضر سليمان الباروني المناضل الذي كان لاجئاً في الأستانة للانضمام الى صفوف المجاهدين في مصراتة . ثم انضم خليفة بن عسكر من يفرن والهادي كعبار من غريان ونوري بك الضابط التركي الذي كان في حملة احمد الشريف ، واشتد ساعد المجاهدين في الغرب ، وانشئت مصانع لإنتاج الاسلحة والذخيرة في مصراتة .

وعلى أثر خلاف في الرأي بين صفي الدين والسويحلي عاد الأول من أورفلة الى معسكر النوفلية يوم ١٦ اغسطس سنة ١٩١٦م .

وفي برقة كان الصيف ساخناً شديد القيظ فقد مادت الأرض تحت أقدام المستعمرين الطليان وزلزلت زلزالها فقذفتهم بحمم مستعرة وكبدتهم خسائر فادحة في الأموال والأرواح . . لقد اندحروا في وادي قمرة بعد استشهاد نجيب الحوراني وتولى عبد السلام الكزة ومحمد بونجوى القيادة هناك . وفي ساوتو أباد المجاهدون فرقة ايطالية لم ينج منها الا الجنرال اميليو القائد العام الذي لاذ بالفرار ناجياً بجلده .

غير أن القوات الايطالية كرت بفرقة من المصوع والأحباش على منتجع المجاهدين في وادي المعقور ثم انسحبت بعد مقتل قائدها وثلة من جنودها وضباطها ، وزحف المجاهدون على سيرة المعيزل وتغلبوا على الحامية الايطالية التي رفعت راية الاستسلام .

وفي المنطقة الوسطى كان الجهاد يسير سيراً مرضياً خلال هذه الفترة ، وقد برز صالح الأطيوش كمناضل صلب اجتمعت فيه صفات القيادة الفذة وأجمعت كل الفئات على حصافته وسداد رأيه . وكان هذا المعسكر (الدور) خالياً من مظاهر التفكك والضعف يتصدى للغزاة تارة يهاجم وطوراً

يدافع عن الحمى . وظهرت في الأفق بوادر الخذلان في صفوف الجيش الايطالي . لقد كان المجاهد يستبشر بالموت ويتلذذ بمصاولة العدو وملاقاة وجه الله شهيداً .

كانت سنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٥ ـ ١٩١٦ حافلة بالانتصارات رغم عوامل القحط والمجاعة والأوبئة وحملات الابادة الدموية . ووصف الجنرال اميليو انطباعاته[١] على النحو التالي :

(بعد سنوات من المعاناة القاسية والبطولة التي سطرتها الدماء الايطالية يجدر بي أن اذكر ان كثيراً من المكابرين والمشككين يحاولون تجاهل عدو قوي وعنيد ومتمرس على القتال الذي يجب أن ننحني لشجاعته مثلما نشيد بشجاعتنا ونقدر الشجاعة عموماً) .

وأضاف الجنرال :

(لقد تمكنت قواتنا بعد جهد جهيد من تشتيت بعض تجمعات العرب ولكنها لم تستطع القضاء عليهم ، وقد تمكنت من إبعادهم عن الكثير من المواقع ولكنها فشلت في ان تقذف بهم الى أعماق الصحراء ، لقد كانت خسائر الثوار عظيمة في الأرواح والمعدات ومع ذلك لم تلن لهم عريكة) .

---

(١) جذور النضال العربي في ليبيا .

واستطرد الجنرال :

(إن قواتنا أصبحت الآن منهوكة القوى تخور إعياء من شدة المعارك المستمرة منذ فترة طويلة دون توقف . إن عدم إحراز انتصار عسكري حاسم ضد هؤلاء الثوار قد ثبط عزائم جنودنا وقلل الجهد الحيوي مع ما يصاحب ذلك من ضغوط مشوبة بالريبة وعدم وجود الدافع المحرك للارادة المعمّق للإيمان في نفوس المقاتلين الطليان) .

(لذلك ـ والكلام للجنرال الايطالي ـ يجب على المكابرين في صالونات السياسة الذين يتجاهلون وجود عدو عنيد متمرس على القتال أن ينحنوا إجلالاً لبسالته مثلما ينحنون إكباراً للبطولة التي سطرتها الدماء الايطالية في هذه الربوع) .

واختتم الجنرال الإيطالي وجهة نظره قائلاً :

(لكي نحرز انتصاراً حاسماً ينبغي تشخيص الأدواء والإتيان بعلاج إيجابي فعّال لأدوات النجاح وإصلاح المعطوب منها . كما أنه من الواجب منح لفتة للضباط وللجنود الايطاليين وتقدير تضحياتهم وإشعارهم بالتقدير ليس من طرف الرؤساء فحسب وإنما من قبل الرأي العام أيضاً كنوع من التكريم لهم وهم الذين يواجهون الموت في كل وقت ببسالة ويدافعون عن ايطاليا بالدماء خلال هذه الأوقات العصيبة) .

(إن الأمم الفاتحة ـ كما يزعم الجنرال ـ الناشرة للمدنية تحتاج دوماً لمقومات التضحية لتحقيق أغراضها وغاياتها) .

نستنتج مما تقدم مدى تململ الرأي العام الإيطالي الذي كان يستهجن تخاذل الجنرالات وعدم إحرازهم لانتصار حاسم رغم ما كانوا يملكونه من أدوات الدمار أمام شعب أعزل صغير لا يملك سوى الايمان بعدالة قضيته ويصر في عناد شديد على مقارعة الاستعمار مهما يكن الثمن .

وعندما أخفق الاستعمار في تحقيق نصر عسكري التجأ الى ممارسة الاسلوب الدبلوماسي واستعمال السيد ادريس السنوسي ، نائب أحمد الشريف ، والذي عاد من الحجاز عبر القاهرة حيث اجتمع باللورد كتشنير . وطلبت منه كل من بريطانيا وايطاليا وقف القتال . وكان للدولتين الاستعماريتين ما أرادتا .

وفي اجدابيا أصدر السيد ادريس أوامره بوقف كل العمليات الحربية ، وحضر وفد ايطالي برئاسة العقيد بيلا ووفد بريطاني برئاسة العقيد تلبيت . وجرت مفاوضات في مرسى الزويتينة اتفق على أثرها على الصلح بموجب معاهدتين منفردتين مع كل منهما . ولا يخفى أنه في هذه الأثناء كان أحمد الشريف يقاتل ضد الانكليز . كما وأن الحرب كانت على أشدها

في المناطق الغربية . والتزم السيد ادريس « أن يسلم لبريطانيا كل الأسرى الانكليز وان لا يسمح للمسلحين، أي المجاهدين، بالإقامة في سيوة والجغبوب وأن يبعد كل الأشخاص الذين يسعون في الفساد والعبث بالأمن وإحداث القلاقل » .

وبموجب هذه الاتفاقية قضى السيد ادريس على حملة احمد الشريف في الصحراء فانقطع عنها المدد البشري والمادي ، وانقطعت عن الديار الليبية .

ومن جهة أخرى كانت الاتفاقية المبرمة مع ايطاليا قد اوقفت الحرب في برقة مما أدى إلى فصل حركة الجهاد عن اقليم طرابلس تمشياً مع سياسة « فرق تسد » وبموجب اتفاقية الرجمة مع ايطاليا فيما بعد التزم السيد ادريس بحل التشكيلات العسكرية ونزع السلاح من العرب . ولم تذع نصوص الاتفاقية مع المستعمرين ، واحتفظ الايطاليون بالمواقع المحتلة لغاية سنة ١٩٢٢ .

كان الموقف خلال هذه الفترة مائعاً وفشل السيد ادريس في حل التشكيلات العسكرية ونزع السلاح . وعندما استولى الحزب الفاشيستي على الحكم في ايطاليا وقرر إلغاء الاتفاقيات المبرمة مع السيد إدريس واستعد للقتال ، بدأت مرحلة الجهاد الثانية .

العهد الفاشيستي
احتلال اجدابيا

سقطت روما في أيدي الفاشيست خلال صيف ١٩٢٢م وانتقد موسوليني رئيس الحكومة الفاشيستية خطط الحكومات الايطالية السابقة في إخضاع الثوار الليبيين والسيطرة على البلاد لمدة ١٢ سنة . واتخذ الدكتاتور الجديد على لسان وزيره فدارزوني قراراً بسحق المقاومة بأي ثمن وأعلن بأنه سيولي عمليات القمع اهتمامه الخاص دون الرجوع الى مجلس الوزراء أو البرلمان وأصدر قراراً بتعيين المشير بادوليو حاكماً عاماً على ليبيا يستمد سلطاته مباشرة من الزعيم . كما كلف الجنرال بونجوفاني بادارة العمليات العسكرية .

وبناء على ذلك قررت الحكومة الفاشيستية احتلال المناطق التي يسيطر عليها الثوار من أجل رد اعتبار العسكريين الطليان ورفع الروح المعنوية بين أفراد القوات المسلحة . ورسم الجنرال بونجوفاني خطة واسعة النطاق وجهز قوات ضخمة لبسط السيطرة في كل مكان . وتمكنت هذه القوات من

احتلال غريان والجفرة والقصبات ومسلاته وترهونة وزليطن بالاقليم الغربي .

ومن المعروف أن المجاهدين في الإقليم الشرقي كانوا قد استردوا اجدابيا والشيلظيمة وأم شخنب قبل فترة الهدنة التي أعقبت هجرة السيد احمد الشريف سنة ١٩١٨م بعد هزيمته في الصحراء أمام القوات البريطانية . وبموجب اتفاقية الرجمة أضحى القسم الشمالي من الإقليم الشرقي خاضعاً للسيادة الايطالية بينما ظل القسم الجنوبي مستقلاً لم تطأه قدم مستعمر طيلة ١٢ سنة ، وكان هناك حد فاصل بين العرب والطليان ، وهو خط الابيار ـ جردس ـ مراوة ـ سلنطة ـ خولان ـ عكرمة . وكانت السلطات العسكرية الاستعمارية قد تمكنت بمقتضى اتفاقية بومريم المعقودة بين السيد ادريس والطليان يوم ١١ / ١١ / ١٩٢١ بواسطة ما كان يسمى بـ « الأدوار المختلطة » أي المعسكرات المختلطة[1] وأن تكون على إلمام بتنظيمات المجاهدين العسكرية والإدارية ومعرفة نقاط الضعف والقوة لديهم .

وعلى هذا أعد الجنرال بونجوفاني حملة عسكرية ضخمة تتألف من القوات المدرعة والمشاة والمدفعية يساندها السلاح الجوي الايطالي لمباغتة الثوار فجأة في ضربات سريعة

---

(١) كانت هذه الاتفاقية تنص على وجوب وجود مراقبين طليان داخل معسكرات المجاهدين .

حاسمة خاطفة تحقق انتصاراً عسكرياً شاملاً . وكان يتلقى الأوامر رأساً من موسوليني .

صدرت التعليمات للقطاعات المختلفة بوجوب احتلال اجدابيا والانطلاق منها غرباً لبسط السيطرة على الشريط الساحلي لغاية سرت حتى يتم ربط الاقليمين برقة وطرابلس تمهيداً لاحتلال الجنوب .

تحرك العقيد رونكيتي بقوات مجحفلة تتألف من « المرتزقة المغاوير » والطليان ذوي القمصان السوداء والمصوع الأحباش تساندهم الطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة ، تحرك من سلوق واتجهت قواته في محورين لتطويق الثوار والقضاء عليهم .

وزحفت هذه القوات وفتكت بالثوار في موقع البدين واكتسحت المنطقة اكتساحاً جنونياً تزرع الخراب والدمار . الطائرات تلقي أطناناً من الحديد والنار على القرى والمنتجعات وتصلي الأهلين صليات رصاص من الجو وتتبعها القوات البرية لتفتك بالأفراد والجماعات دونما تمييز بين شيخ وطفل وامرأة وثائر . تحرق الخيام بمن فيها وتدمر المباني وتتلف الغلال . . كانت مجزرة بشرية بشعة بلغ عدد ضحاياها بين قتيل وجريح ومفقود حوالي ٢٠ الف نسمة .

ولم يلبث المجاهدون أن اتصلوا بصالح الأطيوش وأخبروه بالغزو المجحفل الماحق ، وطلبوا منه إرسال نجدات وإلا تعرضوا للفناء التام . ونظراً لضيق الوقت وبطء المواصلات أفاد الأطيوش بوجوب الصمود وضرورة مشاغلة العدو ريثما يتم إعداد العدة الكافية لمواجهته على أبواب اجدابيا .

وكان العدو أسرع بقواته الآلية وطائراته .

أغارت الطائرات الايطالية على اجدابيا وأصلت المجاهدين القليلين بوابل من القنابل ، ثم بدأت المدفعية الثقيلة تدك المدينة دكاً متواصلاً يوم ٢١ ابريل ١٩٢٣م ثم تقدمت قوات مدرعة قادمة من جهة الانتلات تصحبها قوات مشاة . واشتبك العدو مع الثوار الذين لم تدركهم النجدة بعد في معركة ضارية على أبواب المدينة الشمالية عدة ساعات . ثم قام العدو بحركة التفاف من الجهة الغربية وطوق المواقع .

ولكن الثوار رغم تعرضهم لوابل من النيران المنهمرة من الطائرات تمكنوا من شق طريق لهم وانسحبوا غرباً الى مواقع بوجدارية ، وجنوباً الى الواحات . وسقطت اجدابيا في قبضة قوات العدو التي عاث جنودها فيها فساداً واستبداداً وتنكيلاً بالناس .

كان احتلال اجدابيا ضربة صاعقة للمجاهدين . إلا أن اليأس لم يتسرب الى أنفسهم . فأخذوا يحتشدون في الجهة الغربية استعداداً لخوض غمار معركة حاسمة ، في حين بدأ العدو استعداداته الضخمة لاكتساح المنطقة الغربية .

لقد توالت الأحداث بعد معركة القرضابية ولجأ الاستعمار الى استدرار عطف الفئة المعتدلة. فقد أبرم السيد ادريس السنوسي في سنة ١٩١٦ اتفاقية مع ايطاليا في الزويتينة وأخرى مع بريطانيا في عكرمة سنة ١٩١٧ وقد تعهد في الأولى بوقف القتال مع الطليان في المناطق الساحلية المحتلة والتزم في الثانية بايقاف القتال في صحراء مصر الغربية وتسليم الأسرى الانكليز الذين أسرهم السيد احمد الشريف هناك وتسليم ما أسمتهم الاتفاقية بالمشاغبين ومثيري الفتن للسلطات البريطانية في مصر.

وكان السيد ادريس قد تعهد للطليان بتجريد المجاهدين من السلاح ويحلّ جميع التشكيلات القتالية في برقة في مقابل إقامة حكومة له في اجدابيا وحراسة من ألف جندي تموّلهم إيطاليا ويخصص له ولأسرته رواتب مغرية وتقيم له قصراً في

مدينة بنغازي بين البركة وسيدي حسن .

وكان صالح الأطيوش من بين الزعماء الليبيين الرافضين لهاتين المعاهدتين المجحفتين وقد أدى هذا الرفض إلى حدوث خلاف شديد بينه وبين بعض مشايخ قبيلته الأمر الذي دفعه لاستعمال العنف معهم واعتقالهم بسبب إصرارهم على إقناعه لتأييد هاتين الاتفاقيتين اللتين لا تخلوان من مكيدة مدبّرة لتشتيت المجاهدين .

غير أن (الدور) احتفظ بتشكيلاته القتالية كغيره من المجاهدين في الشرق والغرب واستمرت المنطقة الوسطى في معاداتها للمستعمر الأمر الذي كوّن عازلاً بين برقة وطرابلس الغرب وتسبب قطع سبل المواصلات البرية . وقد ضاق الاستعمار ذرعاً بذلك .

ولا بد لنا أن نستشهد بأقوال قادة الاستعمار في هذا الشأن والفضل ما شهدت به الاعداء .

فقد ذكر الجنرال غراسياني في كتابه (نحو فزان) صفحة ٣١٥ :

(في الواقع إن طبيعة هذا الزعيم ـ المقصود به صالح الأطيوش ـ الذي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالسنوسية والذي كان رجلاً طموحاً كما رأينا ذلك) يطمع في إنشاء حكومة

مستقلة في سرت والذي كان يخشى أن ينال جزاءه بسبب تمرده وعصيانه في سنة ١٩١٤، ولم يكن للدعوات التي وجهت إليه بطلب الخضوع والاستسلام أية جدوى ، تلك الدعوات التي سرعان ما أرسلت اليه على يد ابن اخيه محمد عبد القادر الأطيوش الذي حمل الينا خطاباً من عمّه وبقي لدينا بصفة رهينة في سرت) .

وفي نفس الكتاب ص ١٧ ذكر الجنرال غراسياني : (كان عدوان الثوار وهياجهم يزدادان باستمرار بعد تركنا لفزان والجفرة وكان لذلك أثره ايضاً في المنطقة الغربية) .

وأضاف :

(ورغبة منا في قمع الثورة التي كانت الدلائل تدل على أن نطاقها سوف يتسع على وجه السرعة قررت الحكومة الايطالية القيام بحملتين حربيتين هامتين سواء في القبلة أو في سرت ، ولكن الأولى باءت بالفشل في المعركة المشؤومة التي وقفت في وادي مرسيط يوم ٧ ابريل وأما الثانية فقد انتهت نهاية أليمة في قصر (بوهادي) يوم ٢٩ ابريل ـ يقصد بذلك معركة القرضابية ـ . وعلى أثر هذه الخسارة التي أصابتنا عمل الثوار على تقوية صفوفهم بالعصابات الغادرة وبعد ذلك بقليل استولوا على ترهونة وبني وليد اللتين كانتا محاصرتين واشعلوا النيران في الجبل ولم تتأخر كثيراً مذبحة حامية ترهونة التي

وقعت عندما كانت هذه الحامية تحاول الوصول الى الشاطىء يوم ١٨ يونيو) .

(ولما رأت الحكومة ـ والكلام ما زال لغراسياني ـ ان كل محاولة تم القيام بها في سبيل تقديم المدد والمساعدة الى الحاميات المحاصرة قد ذهبت أدراج الرياح (ومن بين هذه الحملات الحملة التي أخفقت في القرضابية) قررت الجلاء عن مزدة التي كانت هي الأخرى مهددة بالحصار ١٥ ـ ٢١ يونيو كما وقعت بني وليد أثناء ذلك في أيدي الثوار وكذلك توالت الأحداث في المنطقة الغربية والجبل) .

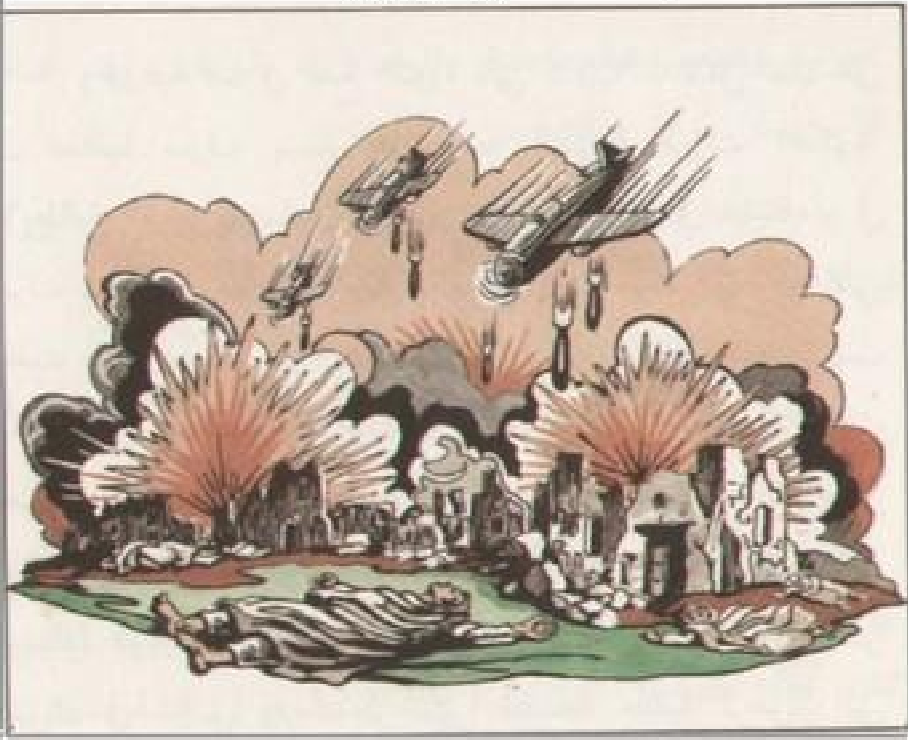

ففي يوم ٥ يونيو هوجمت حامية سيناون ولكنها استطاعت بكل جهد الانسحاب الى نالوت وفي الوقت ذاته هوجمت حاميات الجبل الصغيرة .

في مثل هذا الظرف أمرت الحكومة الايطالية يوم ٥ يوليو ١٩١٥ بانسحاب جميع الحاميات وارجاعها الى الشاطىء فانسحبت حامية يفرن الى الزاوية . واستطاع جزء قليل من بقايا حامية جادو وفساطو الوصول الى الشاطىء وأما حامية نالوت فقد هوجمت هجوماً عنيفاً في منطقة تكوّت اثناء تقهقرها واستطاع نفر قليل منها الالتجاء الى الأراضي التونسية . وكانت

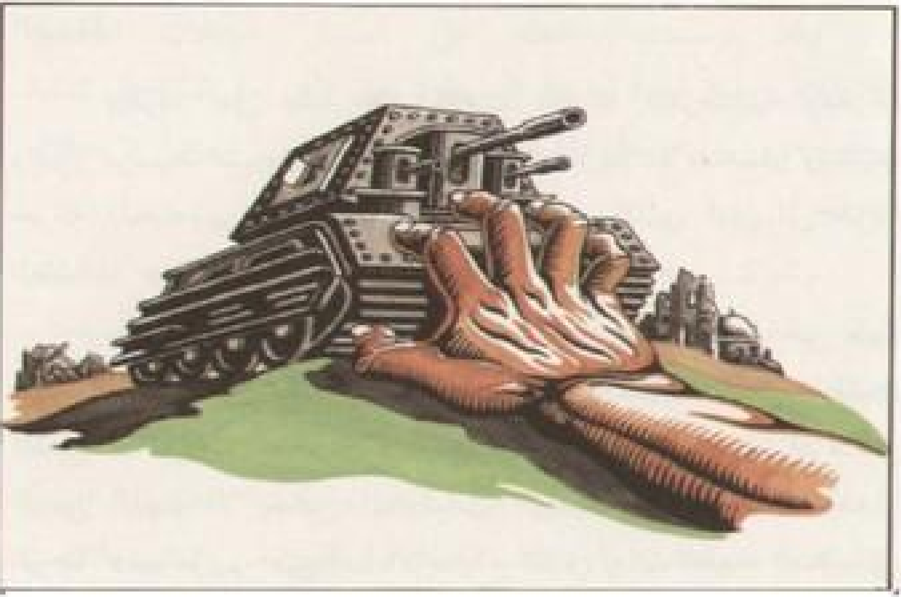

حامية غريان هي وحدها التي استطاعت أن تتراجع الى طرابلس يوم ٩ يوليو دون ان يزعجها أحد وكان رجالها يبلغ عددهم ٤٤٠٠ جندي .

وفي يوم ١٦ يوليو تم الجلاء عن العزيزية وسرت وفي يوم ١٧ أخليت كل من زواره والزاوية ومصراته في اليوم الخامس من شهر اغسطس وبعد ذلك بقليل استطاعت حامية غدامس الانتقال الى الأراضي التونسية . وفي أول يناير ١٩١٦ كان احتلالنا لطرابلس - كما يقول الجنرال المذكور - مقصوراً على قاعدتين اثنتين هما طرابلس المدينة والخمس البحريتين، وفي هذه الاماكن تكدست قواتنا وراء حلقة من الاسلاك الشائكة الضيقة .

وعوداً على بدء فقد كانت معركة القرضابية ومعركة وادي مرسيط سببين رئيسين في تثبيط عزيمة الاستعمار وتنشيط حركة المجاهدين في المنطقة الغربية الأمر الذي أدى الى هزيمة الطليان هناك .

وقد بقيت المنطقة الوسطى بعيدة عن الاحداث من جهة الغرب . أما من جهة الشرق فقد هادن السيد ادريس الطليان الذين أقاموا له حكومة في اجدابيا واستقر الوضع فترة من الزمن اللهم الا بعض المناوشات الطفيفة قبل وبعد معاهدتي الرجمة وبـو مريم حتى بدأ الاجتياح الثاني إبان العهد الفاشستي

وبدأت الاحداث واشتعلت النيران في برقة مرة ثانية .

الاجتياح الثاني

لقد سبقت الاشارة الى أنه بعد استيلاء الحزب الفاشستي على مقاليد الحكم في روما بقيادة بنيتو موسوليني ألغى كل الاتفاقيات المبرمة وقرر استئناف القتال، ولجأ السيد ادريس الى مصر تاركاً شقيقه السيد الرضا السنوسي في واحة جالو .

وأعد الجنرال بونجواني حملة عسكرية ضخمة من المدرعات والمدفعية والمشاة يساندها السلاح الجوي لمباغتة الثوار فجأة لتحقيق انتصار عسكري حاسم .

وقد رسمت الخطة على أساس احتلال اجدابيا والانطلاق منها غرباً لبسط السيطرة على الشريط الساحلي لغاية سرت حتى يتم ربط إقليمي برقة وطرابلس تمهيداً لاحتلال الجنوب .

وتحركت هذه القوات في محورين من سلوق لتطويق الثوار والقضاء عليهم . واكتسحت هذه القوات - كما أسلفنا - منطقة البدين اكتساحاً جنونياً تزرع الخراب والدمار حيث ألقت أطناناً من الحديد والنار على المنتجعات والقرى وأصلت الاهلين صليات رصاص من الجو وفتكت القوات البرية بالافراد والجماعات وأحرقت الخيام بمن فيها من البشر وأتلفت

الغلال وقتلت المواشي . وكانت مجزرة بشرية مأساوية .

وترامى الى مسامع (دور المغاربة) نبأ الكارثة والغزو المجحفل الماحق . ونظراً لضيق الوقت وبطء المواصلات طُلب من المجاهدين ضرورة الصمود ومشاغلة العدو ريثما ترسل تعزيزات لمواجهته على أبواب اجدابيا .

الا أن القوات الايطالية تمكنت من احتلال اجدابيا يوم ٢١ ابريل ١٩٢٣ قبل وصول النجدات وانسحب المجاهدون الى بوجدارية غرباً والى الواحات جنوباً ـ كما أسلفنا .

معركة بئر بلال الأولى

من الطبيعي أن ينتشي الاستعمار بالانتصار نشوة تجعله يطمع في المزيد . وإمعاناً في إحكام السيطرة على المنطقة رسمت القيادة الايطالية خطة تهدف الى احتلال مرسى البريقة باعتبارها ميناء حيوياً هاماً والمنطقة المجاورة بالجنوب .

وتحركت قوات مدرعة وكتيبة مصوع أحباش وسرية فرسان بقيادة الرائد تلقر عبر القطفية الواقعة على بعد ٤٠ كم غربي اجدابيا . كما زحفت في نفس الوقت قوات مشاة وخيالة بقيادة العقيد ماليلي عبر القرين بمحاذاة الساحل . وتقرر أن يقوم المحوران بعمليات « مشط » ثم الاحاطة بالمجاهدين بحركة التفاف بغية تطويقهم ثم إبادتهم . وبذلك يغدو من الممكن بسط السيطرة الاستعمارية على المنطقة وربط الاقليمين ـ برقة وطرابلس ـ ومن ثم ينطلقون الى الجنوب لإنهاء حركة المقاومة .

ورغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين فقد أعد المجاهدون العدة لمواجهة القوى الاستعمارية حيث نصبوا كميناً للمحور الأول عند بئر بلال وكميناً آخر للمحور الثاني عند القرين .

وكانت القيادة الايطالية قد اعتمدت في خططها الحربية على استخدام الوحدات الآلية والغارات الجوية على المتجعات مركزة على حصد الناس والماشية بالجملة وإتلاف المحاصيل الزراعية وإشاعة الرعب في قلوب الأهلين، ذلك أنها لم تكن تواجه فئة معينة من المقاتلين الافذاذ يجابهونها مجابهة الند للند في ميادين القتال بقدر ما كانت تواجه شعباً بأسره .

كانت القيادة الاستعمارية ـ كما يصرح جنرالاتها ـ تواجه فئة تحمل السلاح ولا تخضع لنفوذها ، وفئة أخرى تقع ضمن مناطق نفوذها ، لا تحمل السلاح ولكنها تمد في السر الفئة الاولى بالتموين والسلاح وتوفر لأفرادها المأوى رغم تعرضها للبطش والتنكيل . فكانت الفئة الثانية مسالمة نهاراً وناشطة ليلاً . ومن ثم كان الاستعمار يعتبر كل عربي ثائراً سواء أكان في ميدان القتال أم في حقل الفلاحة وتربية الماشية . ولهذا لم يميز الاستعمار بين هذا وذاك ، ولجأ الى الابادة الجماعية .

ولكي يتسنى للاستعمار بسط السيطرة الكاملة لجأ الى

استخدام الضربات الخاطفة بالقوات الآلية والقصف الجوي كما أسلفنا ـ اذا تعذر على الآليات السير على الاراضي الموحلة او المرملة .

وقد أغرى القيادة الايطالية انتصارها الخاطف في البدين واحتلال اجدابيا فأنفذت هذه الحملة على أمل أن تحقق انتصاراً مماثلاً[1] واعتقدت أن هذه الوسيلة السهلة التطبيق التي مكنتها من القضاء على حوالى ٢٠,٧٩٧ عربي خلال أشهر معدودة سوف تمكنها من البقية في منطقة غربي اجدابيا .

وعلاوة على ما تقدم أيقنت القيادة الايطالية أنه لا وجود لوقاية تقي المتجمعات في براري برقة البيضاء من القصف الجوي ولا تحصينات طبيعية تحمي المجاهدين وعائلاتهم من القوات الآلية . كما انخدعت ايضاً بالهدوء النسبي هناك وخمنت أنه ليس للمجاهدين جيش منظم منضبط مجهز يمكن حشده وتحريكه لمواجهة قوات العدو .

وما إن وصلت القوات الايطالية الآلية عند بئر بلال يوم

---

(١) قدرت خسائر المجاهدين في ربيع ١٩٢٣ على النحو التالي :

أ ـ تشتيت وإخضاع حوالى ٣٤١٧ مجاهداً في البدين .

ب ـ تشتيت وإخضاع ١٠,٣٨٠ آخرين في اجدابيا .

ج ـ القضاء على حوالى ٧٠٠٠ في سهل بنغازي الشرقي . والاستيلاء على ٦٠٢٨ خيمة ومصادرة ١٠٠٠٠ رأس غنم في المناطق الخاضعة لقوات العدو . قتل ومصادرة ٧٠٠ بعير . واعتقال ٢٣٠ مجاهداً .

١٠ يونيو ١٩٢٣ م حتى انقض عليها المجاهدون في معركة انتحارية على مشارف البئر استمرت بضع ساعات . كان الفارس يهاجم الدبابة وحامل البندقية ينقض على الرشاش أو المدفع . والمجاهد يستعذب الموت . وخاض المجاهدون إجمالاً المعركة في روح معنوية عالية .

وفي النهاية حالف النصر المجاهدين بعد مقتل الرائد الايطالي تلفر وإبادة كل الحملة وإحراق حوالى مائة دبابة وشاحنة ولم ينج إلا سيارتان إحداهما كانت تقل الكمندتور روليني لاذنا بالفرار . وغنم المجاهدون ٢٥ مدفعاً ورشاشاً وألف بندقية صالحة للاستعمال ومئات من صناديق الذخيرة . واستشهد على أرض المعركة العديد من المجاهدين من بينهم ناصر الأعمى والمهدي بالحرنة والزروق الاطيوش وغيرهم من الابطال الافذاذ .

كانت الروح المعنوية ـ كما أسلفنا ـ عالية . وقد أعرب الكثيرون ممن لم تتح لهم الظروف الاشتراك في المعركة عن الأسى والحزن . ومن بينهم ابراهيم الفيل[1] وقد طمأنهم

---

(١) بعد الانتهاء من المعركة بدأ المجاهدون في إسعاف الجرحى ودفن الشهداء في ساحة المعركة . وفي هذه الاثناء أبلغوا بقدوم قوات ايطالية أخرى من جهة الشاطىء لاحتلال مرسى البريقة فاخذوا يعدون العدة لمواجهة العدو في اليوم التالي وقطع مسافة حوالى ٢٠ كم شمالاً . وفي هذه الاثناء حضر ابراهيم الفيل واجهش بالبكاء متحسراً على عدم تمكنه من =

صالح الاطيوش أن معركة مماثلة تنتظرهم غداً في مرسى البريقة .

ومن بئر بلال شد صالح الاطيوش والمجاهدون الرحال وتوجهوا شمالاً لملاقاة القوات الايطالية عند الساحل .

= المشاركة في المعركة . وكان الفيل من أبرز الشجعان في المنطقة فقال له صالح الاطيوش « لا تأسف ، ايها الخال ، واطمئن ، فالفرصة متاحة لك يوم الغد في البريقة » .

معركة البريقة الأولى

تمكنت قوات العقيد ماليللي من قطع مسافة شاسعة في طريقها الى البريقة لتتخذ منها قاعدة ثابتة واقامة ميناء بحري حيوي يسيطر على المنطقة ووصلت إلى القرين وكانت النية متجهة لاحتلال البريقة ثم القيام بحركة التفاف للالتقاء بالمحور الآخر وتطويق المجاهدين ثم إبادتهم .

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ـ كما يقال ـ إذ لم يكن يدور بخلد العقيد أن هذه الفرقة قد أبيدت عن آخرها في بئر بلال وأصبح زميله الرائد تلفر في خبر كان . . فقد أخبرته طلائعه بتواجد تحركات للثوار فأصدر تعليماته للجنود باتخاذ مواقع لهم استعداداً للقتال .

وفي هذه الأثناء التقى المجاهدون الذين قدموا من بئر بلال باخوانهم الذين كانوا يرابطون في القرين وأصدر صالح الأطيوش الأمر بالهجوم على مواقع العدو، واشتبك

الفريقان في معركة حامية الوطيس .

وأبرز ما كان يتميز به المجاهدون يومذاك أن الفارس كان ينزع اللجام عن جواده ، وينطلق في سرعة قصوى على المدافع الرشاشة لكيلا يفكر في العودة أمام النيران المنهمرة المهلكة قبل أن يُسكت الموقع أو يستشهد . وقد استشهد الكثيرون ومن بينهم ابراهيم الفيل وعلي عبد الله الاطيوش ورابح القبائلي وغيرهم ولم يلبث أن قتل العقيد ماليلي قائد الحملة والعديد من ضباطه وجنوده .

ودارت الدائرة على القوات الايطالية الفاشيستية التي شتت المجاهدون شملها ومزقوها شر ممزق ولم ينج منها الا عدد قليل التجأوا الى الشاطىء ورفعوا راية الاستسلام . وغنم المجاهدون أسلحة وأعتده كثيرة لدرجة أنها تسلح فرقة كاملة . لقد انتصر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . ويرجع الفضل في ذلك الى إحكام خطة القادة وبسالة الرجال .

وبعد الانتصار في هاتين المعركتين وتكبيد العدو خسائر فادحة تماثل خسارته في معركة القرضابية ، والتي جعلت جنود العدو في البريقة يحتمون بإلقاء أنفسهم في مياه البحر ولم ينج منهم إلا من رفع راية الاستسلام .

توجه فريق من المجاهدين الى النوفلية للمرابطة هناك

لصد أي هجوم ايطالي محتمل قادم من جهة الغرب بينما توجّه فريق آخر الى منطقة القرين تمهيداً لشن هجوم على القوات الايطالية المرابطة في اجدابيا انتقاماً لضحايا المجازر البشرية الذين أخذوا على حين غرة .

ومن الطبيعي ان تحدث هاتان الهزيمتان أصداء واسعة في الاوساط الفاشيستية أثارت حفيظة الدكتاتور المغرور المتطلع الى إعادة أمجاد أسلافه الرومان ، فاصدر أوامر مشدّدة لهيئة الأركان بضرورة سحق المجاهدين الليبيين بكل وسائل الدمار القمعية ومهما يكن الثمن .

وحيث أن القلم يعجز عن إعطاء لمحة دقيقة مفصلة عن هاتين المعركتين الكبيرتين اللتين لقنتا المستعمرين درساً قاسياً وكان لهما أكبر الاصداء في حركة الجهاد الليبي .

ونظراً لعدم وفرة المصادر المسجلة لدينا الآن فقد استقينا هذه المعلومات البسيطة المختصرة من بعض المصادر الايطالية ومن بعض الشيوخ المسنين الذين حضروا الوقائع كمقاتلين فقط ولم يكونوا على إلمام بما حدث من ترتيبات المعركة وتنسيق الخطة الحربية ومدى قوة العدو وكيف تم التصدي لها وإنزال الهزيمة بها بهذه الكيفية الموفقة .

ونعد القارىء الكريم أننا سنبذل قصارى جهدنا حتى

نفي هذا الموضوع ما يستحق من الشرح والتفصيل عندما تتوفر المعلومات الدقيقة في الطبعة الثانية إن شاء الله تعالى .

ولا بد أن نضع في الحسبان أن ما نكتبه هو تاريخ للاجيال الصاعدة . والتاريخ هو عبارة عن أحداث تحصل في زمن معينّ ومكان معينّ تروى بصدق ونزاهة وغير قابلة للزيادة أو النقصان وليس للخيال فيه دور يذكر .ولكن نحاول أن نردد بعض أقوال الشعراء لعلها تعطي شيئاً من الوصف .

فقد تفتقت قريحة الشاعر البدوي عبد القادر موصاخ الشيخي بقصيدة مطوّلة نذكر منها الأبيات التالية في وصف معركة بئر بلال :

صار في الكراهب[١] يوم عاب عجلهن[٢]
اصابن بلا رادة او قطعوا هلهن[٣]
ما عقّبوا سبيوسي[٤]
يوما ينقى الشّيب من الناموسي
وفيه نصر[٥] يحْدرها على الكردوس

(١) أي السيارات المدرعة .
(٢) انفجرت اطاراتها وتوقفت عن الدوران .
(٣) توقفت لاإرادياً وابيد كل من كان فيها من الجنود والضباط .
(٤) لم يترك المجاهدون أي مرتزق .
(٥) يقصد بذلك المجاهد ناصر الاعمى الذي اشتهر بالشجاعة .

ساعة بعد ساعة ايزم اوطن[١]

ما عقّبوا طلياني
كيف لوّلى كيف النهار الثاني[٢]
ضبابيح واحتاطن على جدياني[٣]
لا اجفلن لا ردّن على امعزهن
او تمنّ جيّفهم طالقات بناني
اتجى من بعيد اتهاب ما اتحملهن
هتكن المدّرع وتم ادماهم في السماح يترّع
كما ذئب عادي في معيز يفرّع
اتيوسه[٤] على حقفة خلا عقلهن

●

وقال الشاعر موسى حمودة القاضي ايضاً :

صار يوم في بلال نص النهار
او عاد م الخيار[٥]
اتشل في المداريع توقد النار
صار يوم في بلال يرضى سعيد

---

(١) وهو يوقف بين لحظة وأخرى تقدم العدو .
(٢) المقصود بالنهار الثاني معركة البريقة التي وقعت في اليوم التالي .
(٣) الضبابيح تعني إناث الذئاب .
(٤) اتيوسه تعني ذكور الماعز .
(٥) الخيار هم الرجال الشجعان ذوو المروءة والنخوة .

حرار او عبيد
او عاد نارهن كابرة في الحديد
الميتّ اللي مات منهم شهيد
زينك نهار
حتى ان كان راحوا علينا اخيار

صارن يومين[1] يرضن اشحاخ
اقتال واجراح
املاقىَ على طول ارض البياخ
منهن المنعول كّسرا او ذَاخْ
او ضاق المرار
بعد بَقيتَه سبع اصبح احار

●

وقال الشاعر الأبعج ابو عدوان الفاخري وهو يصف معركة بئر بلال المسماة بمعركة الكراهب في قصيدة مطولة نوجز منها الأبيات التالية :

الـطير بُـوسبق بُـوتـكـاريـر
لَـذقَـرْ غـريـم الحـبـارة

(١) يقصد باليومين معركة بلال الاولى والبريقة الاولى .

اللـي لا نـصب لـلدواويـر[١]
بكـري فيـه شكّن اظـفـاره
هاذول وطنهم[٢] شافية سرير[٣]
مـلايـا بْـغيظْ وَغـصـاره[٤]
جُنْهم كـراهـب طـقـاريـر[٥]
بـاللون سـود كيف الحجـارة
ينغـم كيـف حس الـزرازيـر
من قبـل لا ايشقن افجـاره
أبقي البنب هـو والبشائـير[٦]
كيف مـن ارغب في ابـذاره
القي شيـوخ والقي مـواديـر
فيـه تَنَبْخنُـو[٧] بـالـغـداره
تمّوا يضربـوا فيه ع السـيّر[٨]

(١) الدواوير هي جمع دوار والمقصود به ذكر الحبارة .
(٢) يقصد هؤلاء المغاربة .
(٣) شافية هي أطراف الصحراء غير المحصنة طبيعياً .
(٤) كانوا مفعمين بالغيظ ضد العدو الذي تمكن من إخوانهم في الشرق .
(٥) أرتال من السيارات المدرّعة .
(٦) الرشاشات السريعة الطلقات .
(٧) لقي العدو رجالاً أفذاذاً تبادلوا معه طلقات النيران كما شبهها الشاعر على شكل حبات المسبحة التي تتساقط الواحدة تلو الأخرى .
(٨) السير يقصد به الحزام الذي يتمنطق به الجندي حول وسطه .

الـكـافـر الـســاحـق نهاره
اعـــداد ألف ملكلب الكبـير
قضــوه قضى شــاة اجـزاره
واعــداد ألــف تمـوّا بعـــائـر
عــذى في شــوافي قـراره(١)
ســلمّ أرعــاة الـقـنــائـر(٢)
لــولاهــم انتبقى خســارة

●

وفي ختام فصل معركتي بئر بلال والبريقة نود أن نؤكد للقارىء الكريم أن قرائح العديد من الشعراء الفحول من الغرب والشرق قد تفتقت بالعديد من القصائد الشعرية في وصف هاتين المعركتين الخالدتين اللتين شفتا الغليل من العدو المستهتر الغاصب الناكر لحقوق العرب في أوطانهم ، وهي ، لو سمح الظرف لجمعها ، تحتاج للكثير من الصفحات. ولكننا نكتب تاريخاً ونستدل فقط بالشعر الذي قيل في حينه لتأكيد صحة الوقائع الحربية .

---

(١) ما ترمي به السيول في المنخفض من القش والاعواد البالية الى حافتيه .
(٢) فرسان الخيول الاصيلة المطهمة الذين ثاروا للمذابح السابقة .

الوضع العام
في المناطق الغربية

بعد الانتصار الكاسح على القوات الايطالية في المنطقة الغربية وانسحابها من جميع المناطق واحتفاظها بميناءي طرابلس والخمس واحتمائها وراء الاسلاك الشائكة هناك ، سيطر المجاهدون على الموقف وبرز من زعماء المجاهدين رمضان السويحلي في مصراته وعبد النبي بالخير في اورفله واحمد المريّض في ترهونه وخليفة بن عسكر في الجبل الغربي والهادي ومختار كعبار في غريان وعون سوف في الزاوية الغربية ومحمد فكيني في الرجبان وكذلك على الشتطة والصويعي الخيتوني وسليمان الباروني وغيرهم . ونظم هؤلاء الزعماء حركة الجهاد في المناطق الغربية وسارت الامور على ما يرام .

وفي أوائل ۱۹۱۷ أرسلت ايطاليا تعزيزات بقيادة الجنرال لاتيني من البحر الى ميناء زوارة واستولت على هذه المدينة التي تقع على مقربة من الحدود التونسية .

ومن هناك اندفعت شرقاً وتصدى لها المجاهدون واجبروها على العودة الى زوارة . كما وقعت معركة ثانية في الجديْدة انتصر فيها المجاهدون ايضاً . وكرر الاستعمار هجومه بقيادة الجنرال كاسيني خلال ربيع تلك السنة ومني بخسارة اخرى في العجيلات .

ودفعت ايطاليا بحملة ثالثة في أواخر السنة انتصر فيها الاعداء على المجاهدين في العجيلات واحتلوها بعد معركة ضارية وتقدموا من هناك نحو صرمان ثم جنزور حيث التقوا بالمحور القادم من طرابلس وتمكنوا من القضاء على المقاومة هناك .

بعد أن تمت سيطرة العدو على الشريط الساحلي الذي يربط طرابلس بزوارة تجمع المجاهدون في فندق بن غشير وسواني بن آدم . وتقدم الطليان الى هاتين المنطقتين حيث جرت معارك عنيفة طوال هذه السنة . واخفق الجنرال كاسيني في احتلال العزيزية التي كانت مركزاً للمجاهدين يشنون منها غاراتهم المتواصلة على الحاميات الايطالية في مدينة طرابلس . وقد استرد المجاهدون جنزور . وفي أوائل ١٩١٩ م هاجم الجنرال بانتانو بقواته المجاهدين في جنزور واستولى عليها بعد إبادة من كان بها من الثوار . ثم ارسلت ايطاليا تعزيزات من فصائل متعددة من مختلف الاسلحة لبسط سيطرتها على المنطقة .

وقد أوعز للجنرال زوبي أن يقود ثلاث فرق تتألف من ٥٦ كتيبة مشاة و ٢٩ بطارية مدفعية من عيارات مختلفة علاوة على القوات الكثيفة المعسكرة في حامية طرابلس وعددها ٨٠ الف جندي وضابط .

ويبدو أن هذه السنوات الطويلة قد أنهكت الفريقين المتحاربين، أو ربما أراد المجاهدون في الغرب أن يحتذوا بالسيد ادريس في الزويتينة. فقد جرت مفاوضات بين الثوار والطليان يوم ١٨ ابريل وتم عقد اتفاقية هدنة سميت بصلح خلة الزيتونة وتوقفت الاعمال الحربية . وفي هذه الاثناء تمكن الاستعمار من زرع الفتن وابتياع بعض ضعفاء الضمائر .

لم يستمر الصلح طويلاً فقد بدأت المناوشات في مصراته وجنزور والجبل الغربي ولا سيما غريان وبني وليد ، واستولى الايطاليون على مصراته سنة ١٩٢٠ م . وحصلت فتنة قتل فيها السويحلي في بني وليد .

وتوالت الاحداث المأساوية في غير صالح المجاهدين عندما بدأ الاجتياح الثاني واستعاد الطليان مناطق كثيرة ورسموا الخطة لاستعادة المنطقة الوسطى ثم التوجه نحو الجنوب للقضاء على حركة الجهاد .

المنطقة الوسطى

من المعلوم أن هزيمة الفرقة الايطالية المدرعة في بئر بلال وإبادة جحافل المشاة في مرسى البريقة قد أثارت حفيظة القيادة الايطالية في المناطق الشرقية فاعتزمت محو آثار تلك الهزيمة واستعادة معنوياتها . فقررت إنفاذ حملة عسكرية الى نفس المنطقة لرد الاعتبار .

وبناء على ذلك تحركت قوات آلية ومشاة تتألف من ٣٠٠٠ جندي وضابط تحملهم ١١٥ دبابة وشاحنة و ٥٧٥ دابة بقيادة العقيد أزوني من مدينة اجدابيا الى جهة الغرب ووصلت بئر بلال يوم ٣ سبتمبر ١٩٢٣ م .

وكانت الخطة تهدف الى تطويق المجاهدين فجأة ثم القضاء عليهم . ومن المعروف أن المجاهدين كانوا قد توجهوا ـ كما أسلفنا ـ الى جنوب الغرب ولم يبق في الموقع الا تشكيلات قليلة .

وهناك جرت معركة بين الطرفين غير المتكافئين وتمكن الطليان من بسط سيطرتهم على أرض المعركة التي سقط فيها ٣٥٢ شهيداً وجريحاً . ولم تعلن خسائر العدو .

وأقامت هذه القوات نصباً تذكارياً لقتلاها في معركة بئر بلال الأولى ثم عادت أدراجها الى اجدابيا. وربما كانوا يخشون التعرّض لهزيمة مماثلة لتلك التي حصلت لهم في الصيف المنصرم . . . وعندما تواردت الانباء على قيادة المجاهدين في النوفلية قررت القيام بهجوم مضاد . وعند وصول النجدات وجدت بئر بلال خاوية على عروشها . ومن هناك انطلقت شرقاً حيث التقت بالايطاليين وخاضت معهم معركة تمكن فيها المجاهدون من تشتيت تجمعاتهم واحرزوا فيها انتصاراً .

وكانت نتيجة هذا الاخفاق علاوة على الهزيمتين في بئر بلال الاولى والبريقة تؤرق القيادة الفاشيستية .

ومن ثم أعدت القيادة العامة خطة جديدة تهدف الى احتلال البريقة بانزال جديد وتحت غطاء قصف الاسطول بعد أن يمهد لذلك قصف جوي مكثف وعلى أوسع نطاق ، على أن تقوم قوات أخرى آلية من جنوب الشرق وتطبق على المجاهدين .

ولا يخفى أن هذين الموقعين، اي البريقة وبئر بلال ، كانا

يخلوان من المجاهدين اللهم الا نسبة قليلة وذلك بعد انتقالهم الى القرين والنوفلية للمرابطة هناك .

وفي هذه الاثناء أبحرت قطع الاسطول الايطالي من مرسى الزويتينة وألقت مراسيها في المرسى المذكور وأخذت تقصف المنطقة قصفاً عشوائياً كيفما اتفق .

وكان السلاح الجوي الايطالي قد مهّد لذلك بشن ٥٧ غارة جوية على المتجمعات المتناثرة ما بين القطفية والبريقة .

وفي اليوم التالي تم إنزال بحري يتكون من عدة كتائب على شواطىء البريقة وأخذوا يطلقون النيران على كل هدف متحرك سواء أكان انساناً او حيواناً . ثم اشتبكوا مع ثلة من

المجاهدين وأبادوهم عن آخرهم وتمكنوا من نقل جثث قتلاهم في منطقة (بوقراده) الذين سقطوا في معركة البريقة الاولى .

ولم يلبثوا أن عادوا أدراجهم واستقلوا قطع الاسطول . لقد عادوا تلقائياً دون أن يلاحقهم أحد ربما لان المجاهدين كانوا يخشون مدفعية الاسطول أن تنال منهم ولا يظفرون بطائل او ربما لبعدهم عن هذا الموقع .

على العموم لقد أحرز الايطاليون انتصاراً في هذه المعركة وتمكنوا من نقل جثث قتلاهم التي ظلت مبعثرة في ساحة المعركة منذ أن حلت بهم الهزيمة الاولى في البريقة ، وربما كانت عودتهم الى الاسطول لانهم كانوا يتجنبون كارثة مماثلة .

اعتقال صالح الاطيوش

كان صالح الاطيوش من بين زعماء المجاهدين الرافضين لاتفاقيات الزويتينة وعكرمة والرجمة وبومريم لما تحمل هذه الاتفاقيات في ثناياها من مؤامرات تهدف الى كسب الوقت وتشتيت شمل المجاهدين وتجريدهم من أسلحتهم ثم بسط السيطرة الاستعمارية على البلاد تدريجياً وبأقل ثمن .

ونتيجة لما تقدم رفض تنفيذ تعليمات حكومة السيد ادريس في اجدابيا التي تقضي بحل التشكيلات القتالية وتجريد المجاهدين من الأسلحة .

كان هذا الرفض المستمر وعدم الامتثال لرغبة القيادة العليا للمجاهدين في المنطقة الشرقية التي يمثلها السيد ادريس السنوسي ثم من بعده شقيقه السيد الرضا وأعوانهما قد أثار حفيظتهم وصاروا يدبرون له المكائد والاستفزازات باستمرار للايقاع به ، كما كان تحدي دور المغاربة للقوات الايطالية

سنوات طويلة في المنطقة الوسطى وتكبيدها خسائر فادحة في معارك كبرى مثل بئر بلال والبريقة وقطع خطوط المواصلات الايطالية بين برقة وطرابلس قد زاد من حنق المستعمرين والمهادنين لهم .

ومن هنا بيّتت (حكومة اجدابيا) النية لعزل صالح الاطيوش عن قيادة دور المغاربة وتعيين بديل له يتولى تنفيذ التعليمات التي تقضي بتطبيق نصوص الاتفاقيات المبرمة مع القيادة الايطالية . وقد اختيرلذلك قجة التشادي وهو زنجي من خدم الامير ادريس الموالين له .

وصل قجة ومن كان معه من الزنوج الى دور المغاربة يحمل رسالة تقضي بتنحية صالح الأطيوش وبتوليه قيادة الدور (المعسكر) وتنفيذ التعليمات الصادرة له .

عقد كبار المجاهدين الذين أذهلتهم المفاجأة اجتماعاً وأكدوا أن صالح الاطيوش لم يكن معيناً في قيادة الجهاد في هذه المنطقة من قبل أحد وإنما أولته الثقة قبيلته لما ترى فيه من الحنكة وسداد الرأي والقدرة على قيادتها . ومن ثم تقرر عدم الاستجابة لهذا الامر وطلب من قجة أن يعود من حيث أتى .

وقد عاد قجة بالفعل الى مرسله في اجدابيا من غير أن يظفر بطائل وأحبطت المؤامرة .

وقد قال أحد الشعراء تعقيباً على هذا الموقف :

(ايش ريت يا محمود في هالرّشمه
رد العبيد وعبرته في خشمه)

وكان الشاعر يعني بذلك أنه يسأل احدهم عن رأيه في هذا الموقف الحاسم الذي خذل قجة برفضه أن يكون قائداً لدور المغاربة وعودته باكياً الى مرسله في حكومة اجدابيا الموالية للاستعمار الايطالي المهادنة له .

وقد زاد هذا الموقف الحقد والضغينة على صالح الاطيوش سواء من المستعمرين أو ممن كانوا يتعاونون معهم ومن ثم دبروا له المكائد للايقاع به مهما كلف الامر .

وبعد مضي فترة من الزمن التجأ السيد ادريس الى مصر وتولى السيد الرضا مكانه في جالو .

استدعى صالح الاطيوش والفضيل المهشهش مستشار الدور وهو من الشخصيات التي تتمتع بالحصانة وسداد الرأي وبعد النظر للتشاور معهما في أمور الجهاد .

انتقل صالح الاطيوش الى جالو لاستجلاء الامر والغرض من هذا الاستدعاء ولم يعلم أن النية كانت مبيتة لاعتقاله . وعند وصوله والفضيل الى هناك اعتقلا على الفور دون أن تتم المقابلة مع السيد الرضا .

وقد شكلت لها محكمة برئاسة السيد عمر المختار إلا أنه وقع خلاف بين أعضائها حيث لم يتفقوا على إدانتها فتقرر نقلها الى الجبل الشرقي .

وما ان علم الدور بما حصل حتى انفذوا اليه مجموعة من الرجال وكان من بينهم المحسن المريّض وهو من قبيلة الفرجان أولاد أبي عائشة للاستقصاء عن جلية الامر . وقد تمكن المحسن من الاجتماع به وأخبره أن المغاربة ينوون تشكيل مجموعة من المقاتلين لإخراجه من الاعتقال بالقوة . وأخبره صالح بكل ما حدث وشرح له أن النية مبيتة لنقله الى جهة الشرق بالجبل وأنه اذا كان هؤلاء المقاتلون يستطيعون الوصول الى جالو خلال ١٥ يوماً كان بها واذا تعذر ذلك ينبغي تشكيل قوة أكبر للحاق به شرقاً .

عاد الرسل من جالو واخبروا مرسليهم . فشكل المغاربة قوة من الرجال على الفور واتجهوا نحو جالو وعند وصولهم اختبأوا خلف الكثبان الرملية بالواحة ، وتسلل أحدهم خفية ليخبر صالح الاطيوش بقدومهم ، واتفق معه على أن يأتوا بعد صلاة المغرب .

ولا بد لنا من التنويه بأن صالح الاطيوش والفضيل كانا معتقلين اعتقالاً انفرادياً وكلاهما على حدة .

كان المكلف بحراسة صالح الاطيوش رجل من واحة أوجلة يدعى الحصان وهو صهر لقبيلة المغاربة . وعندما حان الوقت قال لحارسه « اخوال ضناك سيصلوا بعد لحظات بقصد تخليصي من الاعتقال ولذلك انصحك بالابتعاد في هذه اللحظة » وبالفعل تركه الحارس واتجه الى جهة غير معروفة ولم يخبر احداً .

وقد بدأت العملية بأن اتخذ مجموعة من الرجال مواقع قتالية معينة ودخل بعضهم على صالح وأخرجوه من المعتقل . وبعد أن ابتعدوا عن المعسكر قليلاً توقف صالح وسأل عن زميله الفضيل . فرد بعضهم : نحن جئنا لانقاذك أنت وهذا هو الهدف ، ولا تخشى على الفضيل طالما نجوت أنت .

ولم يكد يسمع هذه العبارة حتى توقف مقسماً بالطلاق، وكانت هذه هي عادته عندما يغضب ويشتط ، الا يخطو معهم خطوة واحدة ما لم يكن الفضيل معه . وأضاف : كيف لي ان أعود ويفرح أهلي بعودتي بينما بنات الفضيل يبكين على غيبة أبيهن . فان لم يكن في مقدوركم تخليصه من الاعتقال هو الآخر فانني سأعود الى معتقلي ولكم أن ترجعوا من حيث أتيتم .

عند ذلك قال له الرجال : ما دامت هذه رغبتك فاننا

سنليها وان كنت تريد أن نأتي اليك بالسيد الرضا نفسه سوف نفعل .

بقي بعض الرجال في حراسة صالح وذهب الآخرون وخلصوا الفضيل ايضاً واتجه الجميع شمالاً سائرين طوال الليل .

وقد انتبهت سلطات السيد الرضا بعد خطف الاطيوش بفترة وجيزة وأرسلت على الفور قوة تتعقبهم بقيادة الضابط بوكاتوه . وعند انبلاج ضوء النهار لاحظ صالح ما لحق برجاله من شدة التعب والاعياء في تلك الصحراء المقفرة وأمرهم أن يحطوا الرحال للاستراحة قليلاً .

كان قائد القوة التي تتعقب صالح الاطيوش ورجاله وهو الضابط بوكاتوه قد رآهم بالمنظار المكبر ، ولكنه أخفى على جنوده ذلك وادعى لهم أنه من الصعب العثور عليهم هنا . واذا تقدمنا فسوف نصطدم بهم بين قومهم وسوف تحل بنا كارثة هناك . لذلك لا مناص لنا من العودة الى جالو . وقد عادوا بدون جدوى .

وفي أثناء استراحة صالح الاطيوش ورجاله أخذ الفضيل المهشهش يترنم بالابيات التالية :

(بلا جيل بو لحية او حتى السيد
مع جماعتي صابح انقول معيّد)

وكان يقصد بذلك أنه تخلّص من الاعتقال وأصبح وكأنه

يحتفل بيوم عيد دون أن يقبل عليه جميل ابو لحيه (اي السيد عمر المختار) الذي كان يرأس المحكمة ولا السيد الرضا الذي كان يمثل القيادة العليا للمجاهدين في جالو .

وصل صالح الاطيوش الى دور المغاربة في الخيران الواقعة غرب اجدابيا واستقر هناك .

ولا بد لنا من التنويه أنه عندما اعتقل صالح كان السيد رضا قد أنفذ ابنه السيد الصديق ليتولى قيادة الدور ولكن المجاهدين كانوا غير راضين على هذا الاجراء .

لقد كان لهذا الموقف تأثيره السيء على نفوس المجاهدين المغاربة الذين اعتقل زعيمهم الفعلي وولي عليهم شخص آخر . وعند عودة صالح من المعتقل الذي لم يبق فيه طويلاً بفضل وفاء اخوته وأبناء عشيرته له الذين لم يرضوا باهانته والزج به في المعتقل، وقد أخرجوه من سجنه عنوة ـ كما سبق الذكر . كان تعلقهم به قد نفى كل صفة للسيد الصديق لدرجة ان حصلت مشادة كادت تؤدي الى نشوب قتال . عند ذلك غادر السيد الصديق ومن معه الدور وبقي صالح الاطيوش هناك ثم اتجه الى النوفلية ليرابط بها ويواصل تنظيم صفوف المجاهدين لمواجهة المستعمرين في المنطقة الوسطى .

كفاح مستميت

أصبح من الواضح بعد المعارك السابقة أن غارات القوات الآلية المكثفة على المنتجعات في سهول برقة البيضاء المكشوفة رغم فتكها وجبروتها[1] لم تثن عزائم المجاهدين لمواصلة الكفاح المستميت ضد قوى الاستعمار الايطالي .

لقد أخفقت القوات الاستعمارية في إحراز تقدم يذكر بل نشطت في حماية خطوط مواصلاتها الامامية من غارات الثوار المستمرة طوال سنة ١٩٢٤ م .

وكان من الطبيعي أن يركز المجاهدون خلال عامئذ على وجوب المحافظة على موارد المياه والمناطق الزراعية وراء الخط

---

(١) استشهد ٨٢٩ مجاهداً وصودرت أو قتلت ٤٢ ألف غنم و ١٥٠٠ بعير وأحرقت مئات الخيام وأتلفت الاطنان من الغلال خلال هذا الشتاء القارس .

أصبح من الواضح بعد المعارك السابقة أن غارات القوات الآلية المكثفة على المتجمعات في سهول برقة البيضاء المكشوفة رغم فتكها وجبروتها[1] لم تثن عزائم المجاهدين لمواصلة الكفاح المستميت ضد قوى الاستعمار الايطالي .

لقد أخفقت القوات الاستعمارية في إحراز تقدم يذكر بل نشطت في حماية خطوط مواصلاتها الامامية من غارات الثوار المستمرة طوال سنة ١٩٢٤ م .

وكان من الطبيعي أن يركز المجاهدون خلال عامئذ على وجوب المحافظة على موارد المياه والمناطق الزراعية وراء الخط

---

(١) استشهد ٨٢٩ مجاهداً وصودرت أو قتلت ٤٢ ألف غنم و ١٥٠٠ بعير وأحرقت مئات الخيام وأتلفت الاطنان من الغلال خلال هذا الشتاء القارس .

الممتد من اجدابيا الى الوادي الفارغ والدفاع عن الجبل الاخضر . فقد تمركز المجاهدون في مواجهة الطليان عبر الخط الممتد من النوفلية مروراً بالشليظيمة ـ الابيار ـ سيدي سليم ـ تاكنس ـ مرادة ـ اسلنطه ـ الفايدية ـ خولان ولغاية بئر المخيلي . ومن هذه المراكز ينطلق المجاهدون ، كل من منطقته للاغارة على العدو ، وذلك على النحو التالي :

١ ـ صالح الاطيوش يرابط في النوفلية ويدافع عن المنطقة ضد القوات الايطالية القادمة من جهة سرت كما يزعج ويهاجم القوات الايطالية المتمركزة في اجدابيا .

٢ ـ عبد السلام الكزة يهاجم القوات المرابطة في الابيار والرجمة وبنينة .

٣ ـ عمر المختار يرابط في المنحدرات الجنوبية بالجبل الاخضر ويدير المعارك هناك .

٤ ـ علي بورحيم يهدد مواصلات العدو بين المرج وطلميثه .

٥ ـ حسين الجويفي يناوش في الفايدية وسلنطه والبيضاء .

٦ ـ قطيط بو موسى يهاجم خولان .

ومن وراء هذا الخط كانت تقيم المتجمعات في بيداء

السروال وبرقه البيضاء والجبل الأخضر . وقد دارت معارك كثيرة هنا وهناك طوال السنة وكان المجاهدون في الجبل الأخضر أسعد حظاً وأكثر أمناً منهم في المنطقة الغربية . كان الوضع في الجبل الاشم المذكور مختلفاً فقد كانت الغابات والأحراج الكثيفة حصناً طبيعياً يناسب حرب العصابات ويقي العائلات من القصف الجوي وغارات القوات المدرعة ويوفر للمناضلين عنصر التفوق في تدبير الخطط الحربية ضد قوات العدو من المشاة والخيالة . الا انه عندما أخفقت قوات العدو في القضاء على المقاومة في الغابات والوهاد العميقة الكثيرة الشقوق والأخاديد ، والروابي الشاهقة ، لجأت الى حشد قوات المشاة والخيالة لتغطية حواف الجبل ، وقوات آلية ممن كانوا قد اكتسبوا خبرة كافية في مجابهة السكان العزل في المنتجعات غير المحاربة عبر البراري الواقعة في الجنوب ، وذلك للقيام بعمليات إبادية مماثلة هناك .

ورغم ما أحدثته هذه الخطة من أضرار بالغة بأولئك البؤساء العزل فقد فشلت في منع المجاهدين من الحركة أو التعبئة والاغارات المكثفة المستمرة على تحصينات العدو .

ورأت قيادة العدو أن تتوقف لفترة لكي تدعم تحصيناتها في المناطق المحتلة وتعيد تنسيق وحداتها العسكرية العاملة هناك . وذلك بعد أن احتلت سرت ـ كما أسلفنا ـ وقضت على

المقاومة في الإقليم الغربي خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤م . . ثم تركز كل قواها على الإقليم الشرقي والمنطقة الوسطى .

ولم يترك صالح الأطيوش الفرصة للعدو لكي يستقر في مواقعه ويعزز مراكزه فظل ينطلق من النوفلية تارة يهاجم تحصيناته في ضواحي سرت وتارة في ضواحي اجدابيا .

سياسة الأرض المحروقة

لقد مضى على الكفاح الوطني ١٤ سنة وقد فشلت القوات الاستعمارية في بسط سيطرتها على البلاد وصد غارات المجاهدين ضد تحصيناتها بالمناطق المحتلة . ولكنها كانت قادرة على حشد الآليات والعساكر وتزويدهم بالتموين والذخيرة حيثما وجدوا .

وركز المترجم له طيلة سنة ١٩٢٥م على ضرب مواقع الطليان في اجدابيا وسرت ، بل استطاع المجاهدون احتلال المنطقة الممتدة من ساونو الى انتلات وخيروا سكانها بين القتال أو الانضمام اليهم وقد وافقوا على الشرط الثاني فكانوا خير عون لتدعيم (الدور) . وقد اتخذ الجميع مواقعهم في ساونو والقرارة وسيطروا على موارد المياه .

وعلى أثر ذلك ازدادت قيادة الفاشيست حنقاً وحقداً متاصلين فيهم ، فرسم الجنرال مومبيللي خطة جديدة تتمثل في

إقامة خط من الاستحكامات لكي يتسنى له بمقتضاه الإشراف على المناطق المحتلة ومنع المجاهدين من الحشد والتعبئة وعرقلة تحركاتهم ، كما يتيح للقوات الايطالية قتل المواشي والدواب الاخرى وإتلاف المحاصيل الزراعية وإغلاق الآبار بالاسمنت المسلح ودس السم في بعضها ، وتحديد إقامة المواطنين في المناطق المحتلة بعدم السماح لهم في اختيار أماكن الإقامة والفلاحة والرعي أو التنقل من مكان الى آخر إلا بتصريح خاص من السلطة الإدارية . كما تهدف هذه الخطة ـ علاوة على ما تقدم ـ الى جعل المجاهدين في حالة تنقل مستمر وتبقيهم ملاحقين على الدوام .

ومن الطبيعي أن تعطي هذه الخطة نتائج إيجابية فيما يتعلق بسياسة الأرض المحروقة من حيث المبدأ . غير انها مع مضي الوقت الرتيب كانت معطياتها في المجال العسكري سلبية .

ذلك أنها أتاحت للمجاهدين فرصة التحرك على أوسع نطاق بسبب الملاحقات المستمرة في ربوع البراري والصحراء وأنهكت قوات الطليان واستنزفت جهودهم وأقلقت راحتهم ، ولم تحد من نشاط الثوار الذين ازدادت غاراتهم على المواقع ابتداء بالأضعف ثم الأقوى والأكثر تحصيناً وتشتيتها بالتدريج وأكثر من ذي قبل .

وبالنسبة للاعاشة وقطع الموارد عنهم فقد تمكنوا من إيجاد حل لهذه المشكلة بالاقامة كيفما اتفق على حساب المتجمعات المسالمة والحصول على التموين الضروري منها وإيداع عائلاتهم بين ظهرانيها ، كما يزرع بعضهم الغلال في أراضيهم ويتولى البعض رعي الماشية .

على هذا الأساس باءت خطة الجنرال الموتور (مومبيللي) في منع الحشود بالفشل ذلك أنه إذا تجرأت قواته على الاقتراب من الثوار دفعت الثمن غالياً . . وإذا احتفظت بمواقعها لا تضمن لنفسها حرية الحركة والتنقل من مكان إلى آخر .

وقد ضاق الفاشيست ذرعاً بهذه الأمور فرسموا خطة جديدة لاحتلال واحة الجغبوب وحققوا ذلك بسهولة ، ولكن هذا النصر كان يشكل قدرة فنية أكثر منه مغزى استراتيجي ذلك أن الهدف كان يرمي الى استدراج الثوار الى صحراء مكشوفة لا ماء فيها لغرض إبادتهم بالقصف الجوي والقوات الآلية . وقد أدرك الثوار بالفطرة هذه الأحبولـة فتجنبوها .

وقدرت السلطات الاستعمارية خسائر العرب بنحو ٣٠٣ مجاهد ومصادرة أو قتل ٣٠ ألف رأس غنم و٢٣٠٠ بعير وإحراق مئات الخيام ، ولم تعلن عن خسائرها خلال شتاء ١٩٢٥م رغم خسائرها في ضواحي سرت واجدابيا .

وعلى العموم انتهت هذه السنة بعزل الجنرال مومبيللي وتعيين الجنرال تيروزي الفاشيستي حاكماً عسكرياً لإقليم برقة .

خطة الجنرال تيروزي

استهجن الجنرال تيروزي بمجرد تعيينه حاكماً عاماً خطط أسلافه بعد أن تبين له أن وجهات نظر جنرالات مجلس الفاشيست الأعلى المسئولين عن تخطيط العمليات على الخرائط في مدينة روما تختلف عن التطبيق العملي في ميادين القتال .

فبالرغم من الانتصارات في بعض المواقع واحتلال العديد من المناطق الساحلية وبسط السيطرة على الإقليم الغربي فلم تحرز القوات الايطالية خلال ١٦ عاماً من المعارك المختلفة نصراً شاملاً أو خذلاناً منكراً ـ كما يقول ـ وهو يرى أن أسلافه لم يحققوا الأمل المبهج في القضاء على المقاومة المسلحة ولم يصادفهم يأس قاتم . إنها حالة رتيبة مضجرة ـ كما يزعم .

ويضيف الجنرال تيروزي بأن القوات الايطالية تواجه عدواً عنيداً صعب المراس ، وأشبه بالشبح (اللعين) ، المؤرق المتواجد دوماً هنا وهناك ، يشن غاراته « كالبعوض

المزعج ، الذي كلما قتلت واحدة بعد الأخرى وبمجهود مضن ، فلا بد أن تبقى منه أعداد أخرى سابحة في الأفق . وعند الغروب في اليوم التالي يعيد غاراته مجدداً بنفس العدد ويحدث نفس الفتك . إن القوات الايطالية - والكلام للجنرال الموتور - تواجه صعوبات على جانب كبير من الخطورة في هذه الربوع (المحرقة) .

وأعد الجنرال تيروزي بالتعاون مع وزارة المستعمرات خطة تحمل بين ثناياها هدفين : سياسي وعسكري ، فقد رأى أن الواقع المعاش هنا يتطلب استخدام الدبلوماسية لتسهيل مهمة المجهودات العسكرية ، ذلك أن الملاينة الدبلوماسية المهذبة تكون أكثر فعالية من الخشونة العسكرية المتعجرفة مع هؤلاء الناس ، علماً بأنه من الضروري تطبيق الهدفين اللذين لا غنى لأحدهما عن الآخر .

يتمثل الهدف الأول في نصب الشراك للإيقاع بذوي النفوذ وإحداث التصدع في الصفوف بينما يتضمن الهدف الثاني إعداد أكبر حملة عسكرية تقوم بهجوم شامل يحقق النصر النهائي . وقد لعب الدبلوماسي الايطالي أولمي دوراً خطيراً في تطبيق هذه الخطة .

ويبدو أن الهدف الأول وقد تحقق نسبياً بتثبيط عزائم النفوس الضعيفة في حين كان الطريق الى الهدف الثاني مسدوداً

وعصفوفاً بالمحاذير . فقد استدرج الجنرال السيد الرضا حاكم جالو ونائب الأمير واستغله في تثبيط العزائم كما استدرج ابنه السيد حسن الرضا الذي أحدث انشقاقاً في صفوف الثوار وانشق عن عمر المختار بما يسمى بـ « دور الدقيق » بالجبل الأخضر ، كما وقع في حبائله السيد محمد عابد ، حاكم الواحات الصحراوية بالكفرة . اتفق هؤلاء جميعاً مع بعض المتخاذلين على وجوب إبرام اتفاقية صلح وتجريد اتباعهم من السلاح وتسليم الواحات الصحراوية لسلطات الاستعمار .

وعبأ الجنرال تيروزي أكبر حشد عسكري مكوّن من خمس فرق عسكرية تقوم بعمليات « مشيط » كاسحة ماحقة لتحقيق النصر النهائي الحاسم على المقاومة الشعبية .

وتحركت الفرق الخمس :

١ ـ فرقة آلية مجحفلة الى النوفلية .

٢ ـ فرقة تتألف من ٣٠٠ دبابة وشاحنة تساندها المدفعية الى القطفية والى بئر بلال .

٣ ـ فرقة مشاة وهجانة وسواري من سلوق الى اجدابيا ومنها الى غيزل .

٤ ـ فرقة مماثلة من اجدابيا الى الحسيات .

٥ ـ فرقة مصوع أحباش بقيادة عقيد فاشيستي الى مرسى البريقة .

وأصدرت القيادة العامة الأوامر الصارمة لهذه القوات مجتمعة أن تقوم بأعمال قمعية ولو أدى الأمر الى إفناء العرب بحصاد بشري على أوسع نطاق . . على أن تقوم طائرات السلاح الجوي بعمليات الاستطلاع ورجم المنتجعات دون تمييز .

وتوجهت هذه القوات غرباً وجنوباً تقتل أو تعتقل كل من يصادفها سواء ان كان ثائراً مقاتلاً أو مزارعاً أو متجولاً أو راعي ماشية . فحياة الكل متوقفة على مزاج العساكر الطليان . اما القتل في الحال أو الزج في معسكرات الاعتقال(١) بعد مصادرة ما عنده من المتاع والمواشي وغير ذلك .

واكتسحت هذه القوات المتعطشة لسفك الدماء جزءاً كبيراً من المنطقة ونجحت في تفريق كل تجمع واستولت على واحة مرادة والقلعة ولم تلبث أن توقفت عند قارة عافية والحسيات . كما صادف الجناح الآخر مقاومة مستميتة عند

---

(١) أقام الطليان معسكرات اعتقال ضمت ١٨ ألف خيمة موزعة ما بين المقرون وسلوق ، وخصص لكل أسرة كاملة يومياً مقدار كيلو غرام من الشعير الذي استخرجت منه الجمة فقط وقد توفي الكثيرون جوعاً وقهراً .

تاقرفت حيث استمات المجاهدون وسقط العديد من الشهداء وتغلبت القوات الايطالية ثم تقدمت واصطدمت بمقاومة عنيفة في قارة عافية ولم يكن المدافعون أسعد حظاً من ذي قبل فأبيدوا جميعاً .

كما دارت معركة حامية بين فرقة المجانة والسواري الطليان والمجاهدين بقيادة عبد الحميد العبار في معطن غيزل استمرت يوماً كاملاً وانسحب الثوار على أثرها جنوباً ولاحقتهم قوات العدو واشتبكت معهم في معركة أخرى في ربوع الصحراء ابتدأت منذ الصباح لغاية المساء وانتهت باستشهاد المئات ثم انسحب من تبقى على قيد الحياة الى واحة جالو . ولكن العقيد الفاشيستي ماليتي كان قد سبقهم اليها وطوقها ثم استولى عليها .

وبعد سقوط واحة جالو وسواحل برقة والجفرة سيطرت القوات الايطالية على الخط الثاني وأصبحت مراكزها في انتلات ومسوس وساونو واجدابيا ومرادة والعقيلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً .

وظلت الصحراء تعج وتموج بعساكر العدو وكأنها خلية نحل .

التجأت فلول الثوار الى الهروج والواو في قلب الصحراء

وقد تعرض الكثيرون للموت عطشاً وجوعاً في منطقة الحسيات الواقعة جنوب شرقي جالو .

وعلى الرغم من الانتكاس المحزن والتطويق المحكم رفض صالح الأطيوش الاستسلام . . عندما طلب منه الجنرال ميزيتي حاكم مصراته وسرت التوقيع على عقد صلح (مشرف) خلال شهر يوليو ١٩٢٧م . كما رفض عرضاً مماثلاً من الجنرال تيروزي الذي تمكن من استمالة نحو ١٣ شيخاً من زعماء المقاومة في اجدابيا يوم ٣١ أغسطس ١٩٢٧م . كما رفض عرضاً آخر من الجنرال غراسياني .

كان رد المترجم له على الجنرالات أنه لا يرفض المفاوضة فحسب وانما يرفض مبدأ قبول العرض جملة وتفصيلاً .

وبناء على ذلك قررت القيادة الايطالية في الإقليمين تطويق هذا المجاهد الفذ من جميع الجهات . وعند اقتراب العدو أخذ يحشد الرجال ويشحذ الهمم استعداداً للنزال في منطقتي النوفلية والمردومة وكان لسان حاله يردد قول الصحابي الشهيد خبيب بن عدي :

«ولست أبالي حين أقتل مسلماً

على أي جنبٍ كان في الله مصرعي».

اجتياح المنطقة الوسطى
من الشرق والغرب

بعد سنوات طويلة من الكفاح الوطني والمعارك التي لا حصر لها وسقوط العديد من المدن والقرى على امتداد الشريط الساحلي الليبي قررت القيادة الايطالية رسم خطة للاطباق على صالح الأطيوش من جهتي الغرب والشرق وبسط سيطرتها على هذه المنطقة التي احتفظ بها المجاهدون ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً منذ سنة ١٩١١ وحتى سنة ١٩٢٨ وحرّموا عليها البقاء فيها والاستقرار .

وفيما يلي خطة المستعمرين ننقل فقرات منها بأمانة كما وردت في كتاب الجنرال غراسياني (نحو فزان) :

(كان صاحب السعادة السنيور فيدارزوني الذي تولى مهام وزارة المستعمرات منذ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قد عرض للبحث على مجلس الوزراء مشروع القيام بحلقة من العمليات الحربية تتم في وقت واحد على أيدي قوات المستعمرتين

الليبيتين (ويعني بذلك اقليمي طرابلس وبرقة) ترمي الى احتلال جميع الأراضي الشمالية الواقعة على خط طول ٢٩° احتلالاً نهائياً . وكان الهدف من هذه العمليات هو :

حافة أراضي طرابلس الغرب وبرقة الساحلية عن طريق النوفلية والعقيلة واجدابيا واعادة احتلال جميع الواحات الجنوبية وهي جالو ومرادة وزلة وودان وهون وسوكنة والعمل على إخضاع عشائر المغاربة او الاستيلاء على منطقتهم) .

بدأت هذه العمليات في يناير ١٩٢٨ بعد الانتهاء من عملية التطهير التي تمت في جبل برقة في صيف عام ١٩٢٧ . ولقد قسمت هذه العمليات على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تتم على النوفلية ـ مردومة بواسطة الآلايين ثم احتلال بونجيم من جانب قوات طرابلس الغرب وتطهير الوادي الفارغ بواسطة قوات برقة من أول يناير الى ٥ فبراير .

المرحلة الثانية : احتلال واحتي الجفرة وزلة عن طريق قوات طرابلس الغرب ثم احتلال اوجلة وجالو ومرادة عن طريق قوات برقة من ٢٨ يناير الى ١٨ مارس .

المرحلة الثالثة : تطهير منطقة سرت باكملها بين النوفلية

وزلة ومرادة والعقيلة وبين سرت و بونجيم وودان مع احتلال آبار تاقرفت احتلالاً نهائياً من ٤ الى ٣٠ مايو .

ويضيف الجنرال غراسياني :

لقد كان الموقف في طرابلس سنة ١٩٢٧ كما يلي :

(في الغرب كان البدو الرحل في منطقة القبائل المتحالفون معنا ـ والذين كانوا على جانب كبير من القوة ـ يقدمون أكبر ضمان لمؤازرتنا مما يضمن سلامة الجناح الأيمن للقوات التي تقوم بالعمليات الموجهة الى بونجيم وسوكنة . وفي الشرق (أي شرق طرابلس) بين سرت والنوفلية كان هناك صالح الأطيوش وعشائر المغاربة مع بعض وحدات الفارين المنضمة اليه من قذاذفة وحسون وأهالي اورفلة .)

(ولقد كان ـ والكلام ما زال للجنرال المذكور واصفاً الخطة الحربية لاحتلال المنطقة الوسطى ـ كان زعيم المغاربة في الواقع على اتصال بقائد المنطقة الشرقية الجنرال ميزتي منذ الشهور الأولى من عام ١٩٢٧ . وكانت قد بذلت كل المحاولات لحمله على التقدم الى الحكومة ولكي يقوم باعلان استسلامه وكانت أسواق سرت مفتوحة أمامه وأمام رجاله منذ عدة أشهر . ولكن كل هذا كان لا جدوى منه أمام عقليته التي لا تلين وغطرسته بوصفه زعيماً متعصباً متعجرفاً .)

وكان برنامجه هذا الذي وضعه لنفسه قد أوضحه بكل

دقة أثناء اتصالاته التي تمت بعد ذلك مع الجنرال غراسياني من شهر يوليو ١٩٢٨ ديسمبر من تلك السنة ، أي حتى بدء العمليات الحربية والتي كان يعتقد أنها ستوجه نحو الجنوب وليس إلى جهة الشرق كما دلت على ذلك تكتلات القوات وتجميعها حول (ثمد حسان) . ذلك أن قيادة طرابلس الغرب أجرت تلك التكتلات بعد مشاورة وتفكير قصد المباغتة وإيهام المجاهدين .

وقد ذاعت ـ كما يقول الجنرال ـ الشائعات حول هذا الأمر على أوسع نطاق .

وأجاب صالح الأطيوش في آخر خطاب له بالرفض على عرض تقدمت به الحكومة الايطالية تطلب فيه عمل تسوية معه على غرار تلك التسوية التي تمت مع بدو منطقة القبائل. وقد وصل هذا الخطاب الى سرت يوم ٨ يناير بعد أن كانت القوات الايطالية قد قامت في يوم ٣ يناير من ثمد حسان وكانت قد بدأت ضغطها على النوفلية، وكان هذا هو الجواب المقنع السديد ـ كما يرى الجنرال ـ للرد على غطرسة ذلك الزعيم وعدم فهمه وجشعه .

أما موقف المحاربين الثوار الآخرين في آخر سنة ١٩٢٧ فقد كان كما يلي :

أولاد سليمان مع القذاذفة وأهالي أورفلة وبعض المقاتلين

من أراضي الجفرة وزلة في تاقرفت حوالى ١٥٠٠ مقاتل .

وفي الشاطىء الشرقي وحدات من أولاد أبي سيف والجعافرة والعواتي والمنشقون .

وفي الشاطىء الغربي الزنتان والرجبان والطوارق والمشاش والمنشقون وغيرهم .

ولا زلنا في سرد خطة المستعمر في الإطباق على المنطقة الوسطى حيث يقول الجنرال :

عمليات المرحلة الأولى

(تألفت ثلاثة فيالق :

الفيلق (أ) : بقيادة الجنرال غراسياني يتألف على النحو التالي :

أربع كتائب ووحدتان من وحدات الصحراء الثالثة والرابعة وطابوران من الخيالة ووحدة غير نظامية وبطارية مدفعية وقافلة من حوالى ٢٩٠٠ جمل ووحدة خدمات .

كان هذا الفيلق مخصصاً للقيام بالعمليات الحربية في منطقة سرت الشرقية الموجهة ضد المغاربة وغيرهم من المحاربين بالتعاون مع آلاي قوات برقة القادمة من الشرق .
وكان هذا الفيلق القادم من الشرق مقسماً على النحو التالي :

قوة بقيادة العقيد قالينه مؤلفة من الكتيبتين الخامسة

والعشرين والأولى الاريترية .

قوة بقيادة العقيد ماريوتي مؤلفة من الكتيبة الرابعة والكتيبة العشرين الأريترية والبطارية الثالثة .

القوة الخفيفة بقيادة الدوق فولبي المؤلفة من الوحدتين الصحراويتين الثالثة والرابعة وطوابير الخيالة وقوات غير نظامية والقافلة .

أما قائد الفرقة الجنرال لويجي تشيكونتي الملحق بقوات طرابلس الغرب فقد أسندت اليه قيادة تنظيم قوات طرابلس وقوات برقة التي تقوم بالعمليات الحربية في اتجاه المردومة .

وفي يوم ٣ يناير بدأ الفيلق (أ) تحركه من قاعدة ثمد حسان متجهاً شرقاً الى بئر مطراو .

إحتلال بونجيم والزحف على النوفلية

(وفي يوم ٤ يناير انتقل الفيلق (ب) : من بئر الوشكة الى بئر الزيدان ثم تقدم بعد ذلك الى بونجيم ووصل الى الواحة يوم ٦ منه . وهكذا تم احتلال الواحة حيث تثوي عظام الضباط الأبطال الذين قتلوا دون أن ينتقم لهم أحد . وقد استمر زحف الفيلق (أ) أيام ٤ و٥ و٦ و٧ عن طريق خط آبار سرت جنوبي بئر الربيعية وبئر النقدية وبئر القرين وفي يوم ٦

ويوم ٧ تم تطهير وادي هراوة بمناورة سريعة وعلى حين غفلة وتم نزع سلاح أهالي أورفلة والحسون الذين كانوا يقيمون في تلك المنطقة والذين كانوا يعملون كطلائع لزعيم المغاربة).

ولا زلنا نسرد خطة الإطباق على المنطقة الوسطى وتحرك القطاعات العسكرية من الشرق والغرب كما رواها قائد الفيلق (أ) الجنرال غراسياني الذي يستطرد قائلاً :

(ومن صباح اليوم السابع حتى مسائه كان هذا الزعيم على علم بتحركاتنا وكانت كل مفاجأة من جانبنا لا جدوى منها . وكل ما كان باقياً لنا هو الأمل في أن يكون صالح الأطيوش على جهل بحركة العمليات التي تقوم بها القوات الإيطالية القادمة من الشرق المتعاونة معنا في تنفيذ الخطة ، فيقبل الاشتباك في المعركة ويتجه بكل قواته نحونا .

في مثل هذا الموقف لم يكن لنا بد من الإسراع في الزحف بأقصى جهد على النوفلية ، فاستؤنف الزحف في صباح اليوم الثاني وكان الهدف هو بئر أم الدواي) .

وكان الجنرال غراسياني يعني بذلك أنه بعد أن عرفت القيادة الايطالية أن حركات قواتها من جهة الغرب كانت مكشوفة لدى المجاهدين في النوفلية بواسطة إخوانهم في المنطقة الغربية الذين كانوا يوافونهم أولاً بأول بتحركات الطليان ،

وكان أمل القيادة الايطالية الوحيد بنجاح الخطة ألا يكون صالح الأطيوش على علم بالقوات الايطالية القادمة من الشرق . لذلك حثوا مسرعين نحو النوفلية لاستدراجه بكل ثقله للاشتباك مع القوات الايطالية القادمة من الغرب لكي يتسنى للقوات الايطالية القادمة من الشرق تطويقه من الخلف ، أي من الشرق والجنوب ، وبذلك يقع بين فكي الكماشة طبقاً للخطة المرسومة . غير أنه قد فات على هذه القيادة الغبية أن لصالح الأطيوش إخواناً في الشرق ايضاً كما هو الحال في الغرب . لذلك كان على علم بتحركات العدو من الجهتين ، وكان لديه التقديرات الكاملة لهذه القوات الأمر الذي مكنه من رسم خطة مضادة للقيام بانسحاب مدبر في الوقت المناسب . وبذلك أفشل خطط الجنرالات والقيادة الايطالية العليا ، وجعلهم يشعرون بخيبة الأمل كما سنرى في سرد بقية خطة الإطباق .

ونعود الآن الى سرد خطة الطليان على لسان أحد الجنرالات الذي كان يقود الفيلق (أ) :

(وقد أمكن من الأخبار التي لم تكن دقيقة كل الدقة والتي تسلمها الفيلق أثناء الزحف أن هناك بدءاً في حركة تنقلات في مخيمات المغاربة المنتشرة على نطاق واسع في الوديان الممتدة بين النوفلية والمردومة .

« ولذلك فان القائد بعد أن وصل الى آبار أم الدواي في ساعة متأخرة من بعد الظهر يوم ٨ قرر الاستمرار في الزحف بعد أن يستريح بضع ساعات لا أكثر ، وأن يترك القافلة المتأخرة لكي يزحف بأقصى سرعة .

« وقد تألف لهذا الغرض فيلق تحت إمرة الجنرال غراسياني مباشرة قوامه ثلاث كتائب وبطارية وطوابير صحراوية ومن الخيالة تحمل مؤونة ثلاثة أيام . وكان قائد المشاة هو العقيد قالينه وبقيت القافلة في أم الدواي ، تقوم على حراستها القوات المتبقية وقد صدر إليها الأمر بالتحرك نحو النوفلية بمجرد أن تتلقى خبراً من المحطة اللاسلكية أو من الطيارين أنه قد تم احتلالها .

« وقد بدأ الفيلق الخفيف زحفه دون أن يعوقه أي عائق حوالى الساعة الثانية من صباح يوم ٩ وساعده على هذا الزحف نور القمر الساطع . وفي تمام الساعة الثامنة من نفس اليوم اصطدمت دورية الخيالة بقيادة رئيس العرفاء جودتش ببعض فرسان العدو وبدا أنه قد اقتربت اللحظة التي ينتظرها الجميع ـ كما يقول الجنرال ـ ويشتاقون اليها .

« ولكن في الساعة الثامنة والدقيقة ٣٥ أبلغت إحدى الطائرات أن خيام العدو التي كانت قائمة في ضواحي النوفلية قد انتزعت من أماكنها وأن جميع الأراضي المحيطة بها كانت

تبدو خالية . كانت المسألة إذن مسألة مناوشات من قبل مؤخرة العدو .

إحتلال النوفلية

(وفي الساعة التاسعة من يوم ٩ يناير ١٩٢٨ بدأ رئيس العرفاء جودتش فعلاً باحتلال زاوية النوفلية دون أن يلاقي أية مقاومة . ولما اندفع مع رجاله لتعقب العدو استطاع أن يدركهم بعد وقت طويل وبذل دمه في سبيل هذا الاحتلال الجديد .

(وهكذا رفض العدو ـ ولا يزال الكلام للجنرال المذكور ـ قبول الدخول في المعركة وتقهقر نحو الجنوب الشرقي في أقصر وقت ممكن .

(لقد ثبت فعلاً ـ كما يقول الجنرال ـ أن صالح الأطيوش بعد أن تلقى خبراً في ليلة ٨ عن وصولنا الى وادي هراوة سرعان ما أصدر أمره الى مخيماته بالانسحاب في اتجاه منطقة جيفة . ولم تلق الدعوة الى الأهالي آذاناً صاغية وذهبت أدراج الرياح ، تلك الدعوة التي وجهها الطيارون في منشورات ألقوا بها في صباح يوم ٨ على وجه التحديد . ولما كان العدو الذي شهده الطيارون على مسافة ٢٠كم في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي قد سنحت له الفرصة للانسحاب ، لذلك لم يبق لنا

إلا أن نتعقبه بالطائرات والفرسان. ولقد تم ذلك بالفعل بكل شدة بواسطة جميع الطيارين القادمين من سرت. ومن جانب قوات الخيالة التي استطاعت بقيادة النقيب ايموني الاتصال بمؤخرة العدو والاستيلاء على الكثير من الخيام والماشية وعلى حوالى ١٠٠ بندقية. وقد كان الأسف كبيراً لخلاص جموع الثوار المسلحين من هذا المأزق.

(ولما كان صالح الأطيوش - كما يقول الجنرال غراسياني - يتوقع أننا سوف نفعل كما فعلنا في سنة ١٩١٨ وأننا لن نتقدم نحو الشرق ولكننا سنتجه من ثمد حسان الى سوكنة فقد أغفل إصدار الأمر بجمع المسلحين الذين كانوا قد تفرقوا على خط يبلغ طوله حوالى ٧٠ كم بين النوفلية والمردومة.

(واذا ما أضيف الى ذلك إخلاء المخيمات بأسرع ما يمكن فإنه يمكننا أن نستنتج أن قرار زعيم الثوار بإصداره الأمر بانسحاب رجاله في الوقت المناسب كان قراراً حكيماً. وبدون هذه الظروف فإنه كان لا بد له من الدخول في معركة لإنقاذ هيبته ومقامه بوصفه زعيماً كبيراً ذا سلطة واسعة.

(وفي مساء يوم ٩ يناير عند وصول الأسرى الذين اقتادهم جنود الخيالة السبايس وصلت أخبار بأن صالح الأطيوش انسحب في اتجاه الجنوب الشرقي صوب منطقة جيفة لذلك كان من اللازم - والكلام للجنرال غراسياني - دفع

الجنود لتعقب الثوار في تلك الجهة رغبة في عدم إعطاء مهلة للمنسحبين ، ولإنزال أعظم قدر من الضرر بهم ، ولتدعيم العملية التي يقوم بها آلاي ماليتي الذي كان يجب عليه أن يزحف من جهة الشرق على مردومة . ولهذا الغرض ولعدم إضاعة الوقت الثمين قام الجنرال غراسياني بحل المسألة ـ كما يقول ـ بأن شكل أحد الآليات الخفيفة من الخيالة السبايس والطابورين الصحراويين الثالث والرابع والكتيبة الأولى التي امتطى أفرادها إبل القافلة العامة . وقد أسندت القيادة للعقيد ماليتي الذي تحرك من النوفلية يوم ١٠ وقام بزحف مستمر دون توقف . وكان على اتصال دائم بمؤخرة قوات صالح الأطيوش واصطدم بها صدمات متكررة ووصل الى مردومة عند العصر ، أي بعد مسيرة ١٥ ساعة مستمرة دون توقف تمت في أسوأ الحالات الجوية . وقد اتصل العقيد ماليتي في مردومة بالقوات الايطالية القادمة من الشرق واستخدم على التوالي الطابور الرابع الصحراوي في العمل الى جانب عملية تعقب الثوار التي استمرت حتى جيفة بواسطة السيارات المصفحة التي كان يقودها بمهارة الرائد لورنزيني في أيام ١١ و ١٢ و ١٣ يناير) .

في تلك الأثناء كان الجنرال غراسياني يجهل في صباح يوم ١٠ ما حدث في المردومة ولم يستطع أن يتلقى أية أخبار من الطيارين الذين لم يكن في مقدورهم الطيران بسبب رداءة الحالة الجوية ، لذلك قرر التحرك لمساندة آلاي العقيد ماليتي

بالكتيبتين الأريتريتين العشرين والخامسة والعشرين بالبطارية الثالثة وبنصف طابور من الخيالة .

لقد تم انسحاب المجاهدين بقيادة صالح الأطيوش الى منطقة جيفة وأعادوا تنظيم أنفسهم واتصلوا بالمجاهدين من أولاد سليمان وأورفلة والقذاذفة وغيرهم الذين كانوا يرابطون في منطقة تاقرفت وهم الذين كانوا قد خاضوا يوم ٢٥ فبراير ١٩٢٨ مع القوات الايطالية معركة تاقرفت الشهيرة بالاشتراك مع عناصر من المغاربة وأولاد الشيخ وغيرهم من الليبيين الذين تصادف وجودهم هناك .

الافلات من الكمين المحكم

عند انسحاب المجاهدين من النوفلية ـ مردومة بعد معارك متفرقة مع طلائع قوات العدو استقر صالح الأطيوش بمنطقة جيفة ونظم صفوف رجاله وبدأ بشن هجمات بقوات خفيفة لإزعاج العدو تمهيداً لإتاحة الفرصة لرجاله للقيام بهجوم رئيسي مضاد لاسترداد ما فقدوه من مواقع .

إن هذا الانسحاب من الوجهة العسكرية التكتيكية الصرفة يعتبر في حد ذاته نصراً .

أرادت قيادة العدو القضاء على المجاهدين باعداد تلك الحملة الضخمة والاطباق عليهم من الشرق والغرب في معركة

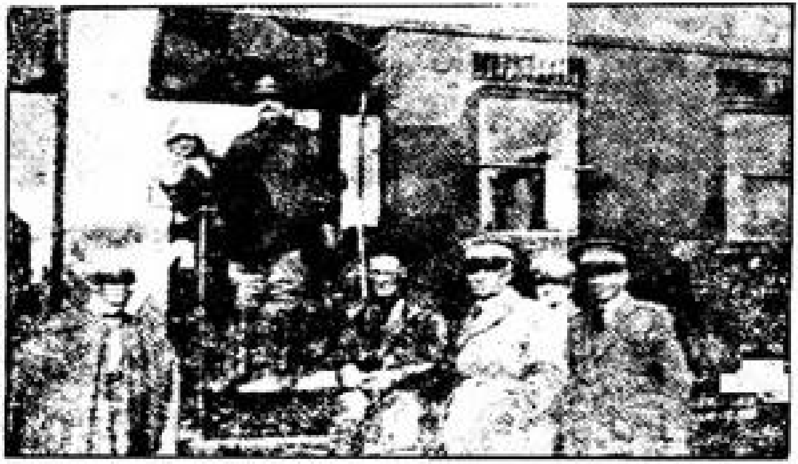

الجنرال تيروزي الحاكم العسكري يستقل قطار العودة بعد خذلانه

جنرالات الفاشيست في الميدان

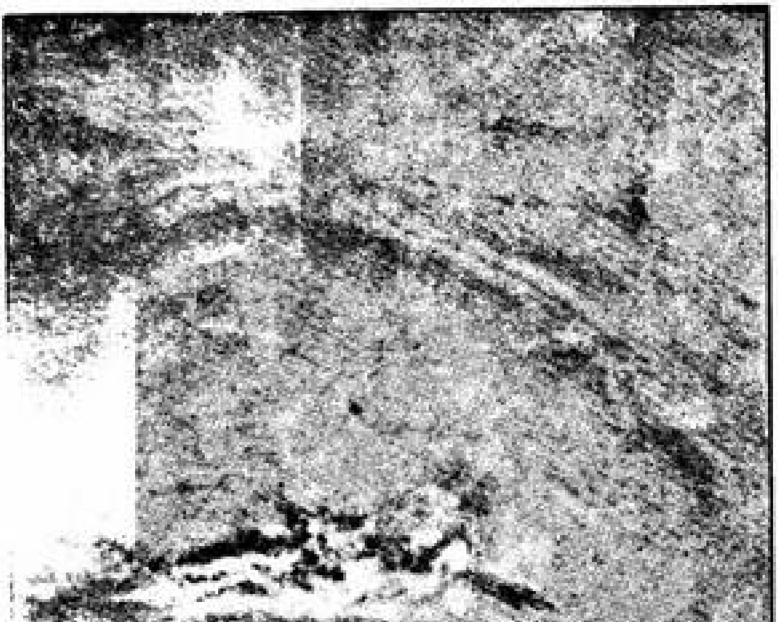

○ ○ في هذا الموقع قصفت طائرات السلاح الجوي الايطالي إحدى قوافل المجاهدين في منطقة غربي اجدابيا سنة ١٩٢٣ م ○ ○

حاسمة لا تقوم لهم بعدها قائمة في هذه المنطقة التي دوختهم سنوات طويلة وأذاقتهم مرارة الهزائم التي منوا بها لاسترداد هيبتهم والانتقام لضحاياهم .

غير أن المجاهدين قد فوتوا هذه الفرصة بفطرتهم الأصيلة على العدو الحاقد المغرور ، وأفشلوا خطته بالانسحاب جنوباً وإعادة تنظيم صفوفهم وشن غارات على مواقعه في الشمال على أمل التمكن من إعادة الكرة في معارك رئيسية .

لقد استنبط صالح الأطيوش ببصيرة المناضل المؤمن النتيجة من السبب بكيفية قياسية تجعل صدق الحس والحدس محتوماً لا غبار عليه ، وكأنما كان لهذا المناضل حدس صادق يدرك خطط العدو إدراكاً مباشراً ويدرك بالسليقة حقيقة نواياه وكأنه في توارد خواطر معه . ومن مزايا القيادة الحربية أنها فضلاً عن المهارة وضبط النفس ورباطة الجأش والقدرة على اتخاذ القرار وسرعة الخاطر وإحكام حركة التطويق وسرعة الافلات من الحصار المهلك ، فهي توجيه المقاتلين الى المكان المناسب وفي أفضل الظروف . ولقد أصر صالح الأطيوش ساعتئذ على وجوب الانسحاب جنوباً إنقاذاً للرجال والعائلات من الفناء المحقق وشماتة العدو .

تجمعت الوحدات الايطالية ـ كما أسلفنا ـ في المواقع المحددة لها وقد توفر لها عنصر السرعة وبدأت في وضع الخطة

المحكمة موضع التنفيذ لإحراز هدف إبادة المجاهدين على أرض منبسطة بقوات آلية مجحفلة ضخمة .

وقد جرت مناوشات طفيفة بين القوات الايطالية على أرض مردومة خلال يوم مغبر عاصف حيث غطت السماء طبقة سميكة من التراب الأحمر الناعم ثم أعقب ذلك هطول أمطار غزيرة ورعود مزمجرة . وكان من الطبيعي أن يعرقل سوء الاحوال الجوية مهمة طائرات العدو ويمنعها من الاشتراك في المعركة ورصد مواقع المجاهدين ، إذ فقدت الاتصال بقوات العقيد ماليتي وتوجهت شمالاً وهي في حالة ارتجاج متأرجحة صعوداً وهبوطاً تتقلب في الهواء مصارعة الزوابع الهوجاء المصحوبة بانعدام الرؤية .

وفي صباح اليوم التالي عندما هدأت الأحوال الجوية ثارت ثائرة حاقدة في نفوس الجنرالات عندما وجدوا أنفسهم واقفين وجهاً لوجه في ساحة خاوية على عروشها . لقد أفلت صالح الأطيوش من الأحبولة المحكمة التدبير بأعجوبة مذهلة ولم تظفر هذه القوات المجحفلة الهائلة بأشد المجاهدين خطراً على الوجود الاستعماري في هاتيك الربوع .

وعقد الجنرالات والعقداء في الحال اجتماعاً وقرروا التوجه فوراً إلى جنوب مردومة في حين توجهت قوات العقيد

ماليتي إلى جيفة حيث تلتقي هناك مع قوات العقيد مالتا وقد حدث هذا اللقاء ولكن دون جدوى ، فعاد إلى العقيلة بينما أقبل الجنرال غراسياني إلى مردومة وعاد الجنرال ميزتي إلى اجدابيا .

وقد حرك هذا الاخفاق في القوات الايطالية روح الحقد والنزعة الدموية فصب الجميع غضبهم وسخطهم على سكان المنتجعات العزل ، وأخذت الطائرات تفرغ عليهم حمولاتها من الحديد والنار ، وداهمت المدرعات كل هدف متحرك وسوته بالأرض . وقد سقط نتيجة لذلك مئات الشهداء وأتلفت المحاصيل الزراعية وقتل حوالى ١٢,٠٠٠ شاة و١٥٠٠ بعير .

ولكي تبرر القيادة الايطالية لزعيم الفاشيست سبب إخفاقها أعلن الجنرال تيروزي[١] الحاكم العسكري العام (إننا نجابه عدواً عنيداً مراوغاً وغير منظور . ومن العبث أن نستهين به في هذا الصراع الدموي الطويل) .

وأضاف :

(إن هذه الثورة تشبه النار المخادعة التي تحسبها خامدة

---

(١) سبق لهذا الجنرال أن انتقد خطط أسلافه الجنرالات السابقين واستهجن عجزهم عن إخماد الثورة وهم يملكون أدوات البطش والدمار . وقد تعرض للعتاب عندما أنحى عليه موسوليني باللائمة فأراد أن يبرر موقفه .

وهي تدب دبيباً لا يلبث أن يشب فجأة في الهشيم وتتأجج تدريجياً لتلفح ما حولها ثم تغمر ألسنة لهيبها كل مكان) .

واستطرد الجنرال :

(من العبث الاستهانة بعدو لا يملك أسلحة فعالة ومن العبث أيضاً إخماد ثورة بمعدات هجومية ونحن بحاجة الى مقومات الدفاع ضد هجوم متواصل) .

واختتم الجنرال تيروزي تقريره :

(إن قمع الثورة يتطلب منا أن نكون على حذر دائماً في كل موطىء قدم حللنا به مع ما يتطلب ذلك من وسائل فعالة وقوة ونشاط وأن نكون جاهزين لمقاومة أي ظهور مسلح حيثما كان) .

قرر المجاهدون الانتقال من جيفة الى جبال الهروج نظراً لانقطاع المدد وتمركز القوات الايطالية على طول الشريط الساحلي بأعداد هائلة ولأن المنطقة الأولى لا تؤمن الحماية الكافية من القوات الآلية وهي مكشوفة للسلاح الجوي . أما جبال الهروج فهي منطقة جبلية وعرة المسالك كثيرة الأخاديد والوهاد عميقة الأودية . تمركز المجاهدون في هضاب مكشوفة الصخور وأضحوا يعتمدون في هذه الجبال المحاطة ببيداء قاحلة جرداء تغطي الكثبان الرملية الجانب الأكبر منها ، أضحوا يعتمدون هناك على بعض الواحات الواقعة في بطون

المجاهدون يعتصمون خلف صخور الهضاب

الوديان الجافة التي يمثل التمر والحبوب غلالها الرئيسية .

ومن هذه المنطقة القصية كان الثوار ينتقلون شمالاً يذرعون مئات الأميال مشياً على الأقدام وعلى ظهور الأبل لغاية الساحل لقتال العدو . وقد التحموا معه في معارك عديدة على أبواب اجدابيا والنوفلية ومرسى البريقة وغيرها .

صراع في قلب الصحراء

لا يخفى أن صالح الأطيوش كان من أبرز المجاهدين[1] الذين رفضوا مشروع الصلح الذي تقدم به أولمي وغيره أصر على وجوب مواصلة الجهاد حتى النهاية. وكانت القوات الايطالية قد احتلت مسوس وساونو وجوف المطر وبيضاء فم وشمال الانتلات وبئر المن وبذلك سيطرت على موارد المياه وأراضي الفلاحة بالشمال .

(١) أوهم الكومندتور أولمي ، وهو دبلوماسي إيطالي بعض الضعفاء بأن الادارة الفاشيستية تنوي نشر السلام والطمأنينة وإعادة آبار ساونو والسماح بحراثة الأراضي الزراعية في منطقة جوف المطر وفتح أسواق أجدابيا ، وتعهد باصدار عفو عام عن كل من يسلم سلاحه ويعلن الاستسلام. وقد وقع في هذه الاحبولة بعض الضعفاء .

وعلى أثر ذلك عقد اجتماع في معطن (بالطفل) حضره عمر المختار وصالح الأطيوش وعبد السلام الكزة وقرروا رفض المشروع الاستعماري وقد رفض المشروع أيضاً كل من عبد الحميد العبار ومحمود بوهدمة والصديق الرضا وصالح بواكريم وبو شديق بو مازق .

استقر المجاهدون المغاربة في جبال الهروج ـ كما ألمحنا سابقاً ـ وبدأوا يشنون غاراتهم على مواقع العدو بالمناطق الشمالية .

من جهة أخرى أخذ الاستعمار يعمل على إبادة جيوب الثوار في الشمال وترحيل السكان غير المحاربين وحشرهم في معتقلات بالمنطقة الشمالية .

وقد أعاد جنرالات الفاشيست تنظيم قواتهم وحشدها على الخط الممتد من جنوب النوفلية ـ العقيلة ومن خط البريقة ـ مرادة وتقرر أن تقوم بعمليات (مشط) هذه المنطقة من الشمال الى الجنوب . وكلف الجنرال ميزيتي بتنفيذ المخطط وصدرت التعليمات للسلاح الجوي الايطالي بأن يقصف كل التجمعات في أعماق الصحراء نشراً للرعب وبعثاً للهلع وحصداً للبشر . كما أعطيت للعساكر الطليان حرية مطلقة بأن يفتكوا بالعرب ما شاءت لهم إرادة الفتك والانتقام دون أن يناهم عقاب .

وكان التركيز منصباً على الصحراء وقد أنفذت القيادة الايطالية حملة عسكرية كبرى بقيادة الجنرال ميزيتي والجنرال غراسياني كاملة التجهيز وهي تتألف من خمس فرق :

١ ـ فرقة بقيادة العقيد سيمون تتحرك من النوفلية .

٢ ـ فرقة بقيادة العقيد قاربللي تتحرك من العقيلة .
٣ ـ فرقة بقيادة العقيد مالتا تتحرك من الجنوب .
٤ ـ فرقة بقيادة العقيد مارماكو تتحرك من زلة .
٥ ـ فرقة لورنزيني تتحرك من مرادة .

اتجهت كل هذه القوات في وقت واحد الى قارة الصفار التي وصلتها في صيف ١٩٢٨ باستثناء فرقة لورنزيني التي انحرفت على وادي القطارة عبر قارة الجفرة وذلك لسوء الأحوال الجوية التي عرقلت مسيرتها وسط وديان متشعبة وتحولت الى شمال شرقي (قور الكلب) ومعطن الجفر بجنوب العقيلة .

وطفقت هذه القوات التي مهد لها السلاح الجوي الايطالي بقصف المنتجعات المراد مهاجمتها تزحف بالتدريج وهي تفتك بالناس وتقصف كل هدف متحرك وتضرم النيران في مخازن الغلال وتردم الآبار وتقتل الحيوانات أو تصادرها .

وكانت حصيلة هذا الحصاد الرهيب خلال هذه المذبحة التي استمرت اسبوعاً حوالى ٢٥٩٤ شخصاً بين قتيل وجريح واعتقال ١٣٦٧ أسرة صودرت ممتلكاتها وزج بها في معسكرات الاعتقال الآتية :

٨١٧ أسرة الى معتقل اجدابيا .
٥٠٠ أسرة الى معتقل البريقة .

٥٠ أسرة الى معتقلات سلوق ـ قمينس ـ المقرون .

وعلى الرغم من انتشار قوات الاستعمار في ربوع الصحراء كانت طلائع الثوار تنطلق من جبال الهروج وتازربو للاغارة على مراكز العدو في واحة جخرّة وقصر الصحابي وواحة جالو ومدينة اجدابيا ومرسى البريقة . فقد هاجمت تشكيلة من المجاهدين القوات الايطالية المرابطة بضواحي اجدابيا كما هاجمت تشكيلة أخرى مواقع العدو في العريضة الواقعة شمالي واحة جالو وأبلت التشكيلتان البلاء الحسن مثخنة في جنود الاستعمار ثم عادتا سالمتين الى جبال الهروج .

ظلت نيران المعارك مشتعلة في ربوع الصحراء طوال عام ١٩٢٨ وانطلق غزو بقيادة صالح الأطيوش من الهروج الى الشمال وهاجم الايطاليين في مرسى البريقة ورحل بعض العائلات من هناك الى الجنوب يوم ٢٩ اكتوبر . واشتبك المجاهدون مع فرقة من المرتزقة قرب جبال الهروج واستشهد حوالى ٤٠ مجاهداً وأصيب ١٣ مرتزقاً وتمكنت قوات الاستعمار من مصادرة ٩٠٠ بعير[١] .

---

(١) أصدر الجنرال تيروسي امراً ببيع هذه الأبل والإنفاق من ريعها على مشروع مبنى الكنيسة الكبرى في بنغازي التي اقيمت على أنقاض مقبرة للمسلمين وذلك لتكون في خدمة حركة التبشير الصليبية تحت رعاية =

اعتزم المجاهدون القيام بهجوم لاسترداد الإبل فشدوا الرحال من جبال الهروج لملاحقة الايطاليين ، إلا أن العدو كان قد نصب لهم كميناً محكماً في ضواحي اجدابيا وجرى قتال استشهد فيه ٣٠ مجاهداً . وعادوا أدراجهم يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٢٨م دون أن يظفروا بغايتهم .

وفي طريق العودة اعترضتهم قوات الجنرال ماليتي ولكنهم شتتوا شملها وتغلبوا عليها فلاذت بالفرار تاركة وراءها ٣٠ قتيلاً . ثم لاحقتهم قوات من المجانة ما بين جخرّة وجالو وتغلبوا عليها أيضاً فلاذت بالفرار . وقد أسروا عدداً من أفرادها .

ولا بد لنا أن نشيد بموقف المجاهدين من قبيلة زويّة بقيادة صالح بو كريم وهم الذين بذلوا النفس والنفيس في حركة الجهاد في ربوع الصحراء ضد القوات الإيطالية . وقد ظلت غاراتهم مستمرة على مراكز الطليان في الواحات وعلى الأخص واحة جالو . كما هاجم المجاهدون من زويّة واحة جخرّة وحرروها من العدو سنة ١٩٢٨ .

= السلطة الفاشيستية والتي أعلنت يومذاك أن هذا المبنى الضخم الناصع البياض الذي يتوسط زرقة البحر والسماء سيكون نواة لمدينة (ايطالية كاثوليكية المذهب تعيد (أمجاد الروم) على الضفة الرابعة من بحر روما) .

لقد كانت جرأة المجاهدين في الصحراء واستماتة إخوانهم في برقة والجبل الأخضر قد أربكت الجنرالات الفاشيست وجعلتهم عرضة للملامة والتقريع المهين من قبل دكتاتور روما وأرغمتهم على إعادة النظر في خططهم الحربية .

فما جدوى الايغال في ربوع الصحراء - كما اشارت صحيفة ايطالية - إذا كانت قوات الفاشيست عاجزة عن حماية مواقعها في مرسى البريقة وضواحي اجدابيا وبعض الواحات الصحراوية .

وعلى هذا الأساس رسمت القيادة الايطالية خطة جديدة تقضي بأن تتحرك قواتها من نقطة ارتكاز نصف قطرية (النوفلية - مرادة) بكيفية مفاجئة ، جنوباً بأعداد هائلة لضرب أي تشكيل من الثوار اذا كان ضعيفاً سهل المنال وتتفادى التجمعات الخطرة . تتحرك حسب إرشادات السلاح الجوي بسرعة وتباغت مباغتة ثم تنتقل من موضع الى آخر لكي تضرب بشدة وكثافة نيران وتتجنب التعمق في الاماكن البعيدة ثم تنسحب اذا لزم الأمر لكي تكر في الوقت المناسب ، على أن تتم عملياتها دوماً بالتنسيق مع طائرات السلاح الجوي الايطالي . ونجحت هذه الخطة الاستعمارية نسبياً فقد تمكنت قوات مدرعة من الفتك بالمجاهدين في أرض الحسيّات المكشوفة وإبادتهم جميعاً ثم انسحبت . كما حاصرت قوات

أخرى مجموعة من المجاهدين في منطقة (حمراء فم) وتغلبت عليهم . وهاجمت فرقة أخرى المجاهدين من أولاد سليمان وغيرهم واشتبكت معهم في معركة ضارية استمرت من الصباح الى المساء وكبدتهم خسائر فادحة

هكذا استمر الصراع الدموي في أعماق الصحراء بين قوات آلية مجحفلة تسندها دولة أوروبية تملك الأسلحة الآلية العصرية والطيران والأساطيل وقلة من الثوار الذين لا يملكون إلا الإيمان بعدالة قضيتهم والعزيمة الفذة على مقاومة عدو لئيم طامع حتى الرمق الأخير ومهما كانت التضحيات .

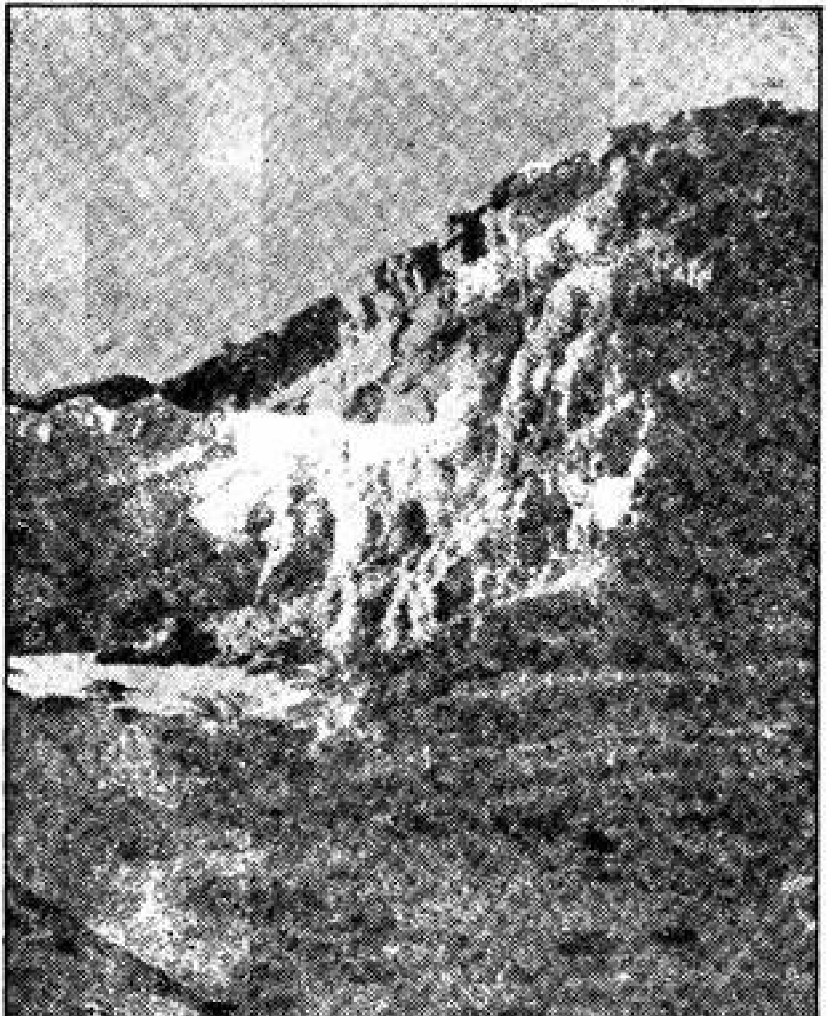

جبال العوينات

عمليات الكر والفر في ربوع الصحراء

ظلت جبال الهروج قاعدة هامة طوال سنة ١٩٢٩ ينطلق منها الثوار ـ كما أسلفنا ـ للاغارة على تحصينات العدو بالمناطق المحتلة وكذلك ضد القوافل العسكرية المنتشرة في ربوع الصحراء .

وقد حدث العديد من المعارك والاشتبكات في هذه الصحراء القاحلة لدرجة أنهكت جهود الطرفين . ونذكر على سبيل المثل لا الحصر ما يلي :

١ ـ أنفذ صالح الأطيوش تشكيلة من المجاهدين بقيادة احمد الأطيوش الى النوفلية واشتبكت هناك مع حامية الطليان وكبدتهم خسائر في الأرواح والمعدات ثم انتقلت شرقاً حيث اعترضتهم قوات أخرى وتغلبوا عليها . إلا أن القيادة الايطالية قررت ملاحقتها بأعداد تفوقها أضعافاً مضاعفة وتمكنت من تطويقها جنوب مرسى البريقة ، ودافع هؤلاء المجاهدون

دفاعاً مستميتاً فأثخنوا في العدو ولكنهم استشهدوا جميعاً بمن فيهم أحمد الأطيوش وعبد الهادي حفتر الفرجاني .

٢ ـ تحركت تشكيلة أخرى من المجاهدين لمهاجمة طرق القوافل الايطالية واشتبكت في معركة مع القوات الايطالية في قارة صويد يوم ٥ مارس وتمكنت من الفتك بالعدو والاستيلاء على سلاحه ومعداته .

٣ ـ تحركت تشكيلة من المجاهدين الى النوفلية لقطع الطريق على الطليان ما بين العقيلة ومرادة ، وتصدت لهم قوات ايطالية في محاولة لتطويقهم وأخفقت بإفلاتهم من الكمين . غير أن قوات أخرى اعترضت سبيلهم يوم ٦ ابريل عند بوجدارية جنوب بئر بريش وجرت معركة سقط فيها ١٦٠ شهيداً ولم يعلن العدو عن خسائره .

٤ ـ اعترضت تشكيلة من المجاهدين قافلة عسكرية في (كاف المتكية) كانت متوجهة الى القريات يوم ١٧ ابريل وتدخل السلاح الجوي الايطالي وقصف الثوار ثم اشتبك الطرفان في معركة عند (بئر تجمل) وأسفرت عن استشهاد ٥٠ مجاهداً ومقتل ٧٥ من جنود الطليان .

٥ ـ رابط المجاهدون في (أم ملاح) وهاجمهم الطليان في اليوم التالي وجرت معركة ارتد المجاهدون على أثرها الى

الوراء . وتوجه الثوار الى (أم الريش) وهناك اشتبكوا مع العدو في معركة حامية واستشهد منهم العشرات وعادت القوات الايطالية الى العويجة .

٦ ـ هاجمت الطائرات الايطالية مواقع الثوار عند بئر زيدان وتصدى لها القناصة فأصابوا طائرة هوت الى الأرض وأسروا قائدها برتبة نقيب طيار وملاحيها .

٧ ـ اشتبكت تشكيلة من المجاهدين مع قوات العدو عند بئر مردومة يوم ٢٤ سبتمبر ولم تعرف نتائجها .

٨ ـ جرت معركة بين الثوار والطليان عند عين زقوط يوم ٢٨ نوفمبر .

٩ ـ اعترضت تشكيلة من المجاهدين سبيل قافلة عسكرية ايطالية عند بئر الزيغن وصادرتها بعد القضاء على حراسها .

تعددت هذه (اللقاءات) طيلة شهور سنة ١٩٢٩ بين الطرفين . تارة يحرز الثوار نصراً وتارة يتعرضون لهزيمة . ولكن الصحراء بقوتها ومتاهاتها أنهكت قوى الثورة .

كان المجاهد يطوي الصحراء طولاً وعرضاً بحثاً عن الماء والقليل من التمر ليسد به الأود وإطفاء لهيب الظمأ !

ويبدو أن الأجسام الهزيلة ، ولا سيما النساء والشيوخ والأطفال بدأت تخور إعياء من قسوة الطبيعة والعوز وملاحقة طائرات العدو التي كانت ترجم المتجمعات بين الفينة والأخرى بوابل من الحديد والنار والمتفجرات . وكم من إنسان تاه بين الكثبان والروابي ومات من شدة الظمأ اذا ضل الطريق .

وفي خضم هذه البلايا المحفوفة بالرزايا لم ير صالح الأطيوش بدأ من الصمود والمقاومة والاستشهاد بديلاً عن التخاذل والاستسلام . فقد نسق مع عبد السلام الكزة وعبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد بومطاري الجهود للدفاع عن واحات تازربو والكفرة من جهة وإنفاذ التشكيلات للإغارة على قوات العدو في شمال البلاد .

بسط الاستعمار سيطرته وأخمد الأنفاس الحية بقوة الحديد والنار وبعد ١٨ سنة من الكفاح المسلح .

وفي الواحات استحوذت قوات الاستعمار على مصادر المياه وسبل الرزق بعد أن حصدت قواته المدرعة وطائراته أعداداً كبيرة من قبيلة زوية في معركة الكوز من بينهم الشيخ صالح بواكريم بين جالو وجخرّة وهيمنت على المنطقة .

ومن منطقة الشريط الساحلي كانت الأنباء تتوارد تحمل بين ثناياها التشاؤم وخيبة الأمل بأن الطليان قد حشروا الناس بالجملة في معسكرات اعتقال مسيجة بالأسلاك الشائكة،

واغتصبوا الأراضي الصالحة للزراعة وفتحوا الأبواب على مصاريعها للمهاجرين الطليان الذين ملّكوهم الأراضي ومهدوا لهم سبل الحياة . وقد نصبوا أعواد المشانق هنا وهناك ، كما ضيقت القوات المدرعة الخناق على المجاهدين وأوشكت أن تسد عليهم كل المنافذ .

لقد أفنى الاستعمار خلال هذه الفترة العصيبة أكثر من نصف عدد السكان العرب .

لم يبق من المجاهدين إلا قلة في الجبل الأخضر محاصرة وقلة أخرى متناثرة في ربوع الصحراء كالخلايا الجوالة في جسد الأمة الموجع بالضربات المتوالية المبرّحة ، تنتقل من موضع الى موضع آخر وتقاسي الجوع والعطش والإعياء من قطع المسافات الطويلة .

كانت سنة ١٩٢٩ محفوفة بالمحاذير، استنزفت الجهد وأنهكت القوى وانحصر المجاهدون في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا حياة .

وهنا اضطر صالح الأطيوش أن ينتقل الى واحات الكفرة حيث يتوفر فيها الماء والتمور والقصب والأعلاف للدواب لتكون قاعدة ثابتة يدافع عنها وتنطلق منها غاراته على العدو في المناطق الشمالية المحتلة .

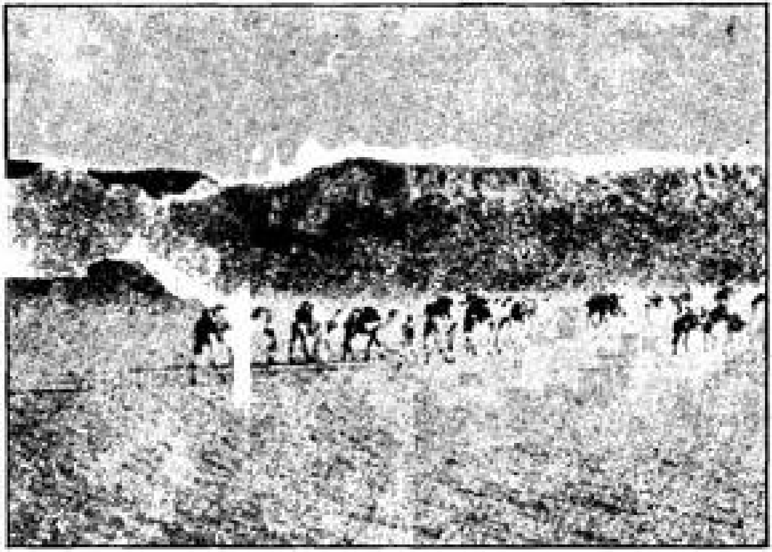

قافلة في طريقها الى العوينات

قاعدة الكفرة

من المعلوم أنه بعد أن تمركز صالح الأطيوش في جبال الهروج لاتخاذها قاعدة ثابتة للانطلاق منها نحو الشمال للإغارة على مواقع العدو وإزعاجه بصفة مستمرة ، وكان يحدوه الأمل كغيره من قادة النضال الوطني في أن يتمكن من تعزيز قوات المجاهدين وزيادة حجمها وفعاليتها وذلك باستقطاب الرجال من المناطق الخاضعة للاستعمار تارة بالترغيب والتفاهم وتجديد روح المقاومة الطويلة والتصدي للعدو وتارة أخرى بالتهديد والوعيد[1] حيث كان يعتبر الخضوع للاستعمار بمثابة مساندته وتدعيم احتلاله للأرض وإذلاله للعرب . كان يأمل في استقطاب تجمعات كافية تمهيداً للقيام بهجوم رئيسي عام يكتسح به قوات العدو بغية استرداد المناطق الشمالية المحتلة كلياً او جزئياً على أقل تقدير .

---

(١) قام المجاهدون بقتال بعض الخاضعين للاحتلال الايطالي ومصادرة أموالهم للانفاق منها على حركة الجهاد .

إلا أن القيادة الاستعمارية قد أدركت هذا المخطط فبادرت باقامة المعتقلات والزج بجميع من بحوزتها من الليبيين داخل اسيجتها تحت حراسة مسلحة مشددة . وفي الوقت نفسه أحكمت الطوق على المناطق الساحلية مما جعل وصول الامدادات الى جبال الهروج أمراً صعباً . لقد تقدمت قوات الطليان واحتلت بعض الواحات في الجفرة وفزان التي كان المجاهدون يعتمدون عليها في تموينهم من البلح والحبوب ذلك لأن هذه الجبال شحيحة جرداء وغير منتجة زراعياً .

عند ذلك لم يجد المجاهدون ملجأ يلجأون اليه وقاعدة يتمركزون فيها سوى واحات الكفرة التي توفر لهم احتياجاتهم من الإعاشة البسيطة لهم ولدوابهم ، ثم التنسيق مع المجاهدين من قبيلة زوية المتواجدين هناك في محاولة للقيام بعمل إيجابي يمكنهم من دحر العدو .

وقبيل الرحيل الى واحات الكفرة أعد صالح الأطيوش عدة تشكيلات من المجاهدين للقيام بغارات على تحصينات العدو في الصحراء وفي المناطق الساحلية .

١ ـ أنفذ ابنه الشريف صالح الأطيوش على رأس حملة تتوجه شمالاً الى النوفلية للإغارة على مواقع العدو هناك وإزعاجه ثم إحضار ما يمكن إحضاره من المؤن والذخيرة إن أمكن ثم

العودة من هناك والالتحاق بالمجاهدين في الكفرة إذا قدر له ذلك .

وقد تحركت هذه الحملة شاقة طريقها الى الشمال وسط المنطقة الخاضعة للاحتلال الايطالي . وبعد تأديتها للمهمة القتالية المكلفة بها بنجاح قفلت عائدة الى الكفرة عبر جبال الهروج . وقد اعترضت سبيلهم قوات آلية كانت خارجة من واحة زلة واشتبكت معهم في معركة ضارية أدت الى ابادتهم جميعاً إلا الشريف الذي وقع في الأسر حيث نقل الى سرت وجرت له محاكمة صورية قضت بالحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم شنقاً .

٢ ـ أرسل من الهروج تشكيلة أخرى من المجاهدين الى الشمال الشرقي واصطدمت مع قوات العقيد ماليتي يوم ١١يونيو ١٩٣٠ الذي انسحب ولم تلبث هذه التشكيلة أن شنت هجوماً آخر على المواقع الايطالية في منطقة (الطوال) الواقعة بين الحسيات والصحابي .

٣ ـ تحركت قوات ماليتي المدرعة واشتبكت مع تشكيلة من المجاهدين عند (وديد الهود) يوم ٥ / ٧ / ١٩٣٠ .

٤ ـ أنفذ صالح الأطيوش تشكيلة من المجاهدين لاعتراض سبيل قوة ايطالية مدرعة كانت متجهة نحو تازربو

تمركز المجاهدون في هذه القاعدة الواقعة في جوف الصحراء وهي واحات غنية بأشجار النخيل والمياه العذبة قرب السطح المكون من الاحجار الرملية وهي تتدفق عبر الآبار الارتوازية والينابيع ، وثمة مستنقعات ملحية وقيعان بحيرة جافة . ومن هناك أخذ المجاهدون ينطلقون طيلة أيام السنة يشنون غاراتهم الخاطفة على مواقع العدو في المناطق المجاورة .

معركة الكفرة

بعد انتصار القوات الايطالية على المجاهدين في منطقة الواو الكبيرة وواحة زلة وأثناء تعقبها لقوات المجاهدين بقيادة حمد سيف النصر اتخذت القيادة الايطالية قراراً بشن هجوم مكثف واسع النطاق على واحات الكفرة . وقد شجعها على ذلك أيضاً إبادتها لمجموعة كبيرة من المجاهدين عند (الغرد) بعد مقاومة مستميتة .

وما أن وردت أنباء قدوم الحملة الايطالية حتى اتخذ المجاهدون المغاربة بالتعاون مع رجال زوية في الهواري مواقعهم ، كما استعد أولاد سليمان مع زوية أيضاً في الجوف والتاج .

تحركت قوات ايطالية استكشافية مكونة من ٣٢ ناقلة آلية و٣٤ مركبة آلية تحمل كتائب فاشيستية من ذوي القمصان

السوداء وتموين وأسلحة ومعدات الى الزيغن . وأعد مطار جالو لاستقبال وحدات جوية بقيادة العقيد لوردي بحيث تتزود منه الطائرات المغيرة بالوقود والقنابل . وأعد الرائد لورنزيني ١٢ سيارة شاحنة محملة بالقنابل والوقود كما جهز مطار آخر بالزيغن صالح لهبوط الطائرات .

وفي يوم قائظ من شهر اغسطس أغارت الطائرات الايطالية على التاج والجوف وأفرغت حمولاتها من الحديد والنار على تجمعات الثوار وأحدثت أضراراً بالغة في الأرواح والمنقولات .

وواصلت الطائرات الايطالية قصف مواقع الثوار في واحات الكفرة دون هوادة تمهيداً للهجوم الرئيسي .

وعلى الرغم من قلة عدد المجاهدين وكثافة قوات العدو التي سبق ذكرها والقادمة من جميع الاتجاهات قرر المجاهدون قبول التحدي والدخول في المعركة رغبة منهم في الاستشهاد دفاعاً عن الديار والأعراض ومكارم الأخلاق .

وقال الجنرال غراسياني قائد الحملة في كتابه « برقة المهدّأة » Cirenaica Pacificata : (كانت هذه المناوشات التي كللت بالنجاح تمهيداً للمبادرة بإرسال حملة إلى الكفرة . إن هذه الاعمال

العسكرية ضيعت أمل صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر اللذين كانا دائماً مصدري قلق لقواتنا ومناوشتها وكانا دوماً يحاولان تطويقها داخل الكيس للقضاء عليها) .

وعندما شعر صالح الأطيوش- والكلام للجنرال المذكور[1] - بعد الغارات الجوية المتكررة على الكفرة أن الدمار سيكون شاملاً وأن الطليان سوف يطوقون الواحات عقد اجتماعاً مع سيف النصر وهيأوا أنفسهم لمواجهة القوات المهاجمة ، وقد أرسلوا طلائع من الثوار لتحديد أماكن القوات الايطالية وواصلت القوات الجوية الغارات على الكفرة وانسحب السنوسيون الى مصر .

نشوب المعركة

في يوم ١٩ يناير ١٩٣١ أقبلت قوات ايطالية مدرعة من جهة الشمال بقيادة العقيد ماليتي وقوات مدرعة أخرى من جهة الجنوب بقيادة الرائد كامبيني وقوات مشاة من المصوع الاحباش والمرتزقة من جهة جنوب الشرق بغية الإطباق على المجاهدين .

(١) إنصافاً للحق والتاريخ نذكر أن هذا الجنرال الفاشي السفاح كان صادقاً في جميع مؤلفاته الكثيرة وقد أوضح للتاريخ بكل صدق وأمانة مواقف قادة النضال الوطني بالرغم من شدة حقده عليهم .

وكان الامير دللي ولبي قائد سلاح الطيران قد أبلغ القوات الايطالية الزاحفة عن وجود قوة تقدر بنحو ٤٠٠ ثائر يرابطون على مشارف الهواري بين أشجار النخيل .

اشتبكت طلائع القوات الايطالية مع الثوار ولكن العقيد ماليتي أصدر أوامره للقوات الأمامية بالتراجع الى الوراء لاستدراج الثوار كي يتقدموا الى الأمام بحيث يكونون أهدافاً مضمونة لقوات الرائد كامبيتي المتربصة الكامنة ثم تكر عليهم القوات المتظاهرة بالانسحاب ويصبحون بين فكي كماشة .

إلا أن ذكاء المجاهدين قد أحبط هذه المكيدة بثباتهم في مواقعهم والتركيز على ضرب الجناح الايمن حتى أجبروه على التقهقر تاركاً قتلاه وجرحاه بعد أن كان متقدماً مندفعاً . وخلال ذلك وصلت قوات أخرى قادمة من جهة بزيمة وكانت قد أخذت علماً بما جرى بواسطة طائرات سلاح الجو الاستكشافية .

توقف الزحف وأقبلت الطائرات الايطالية من الزيغن مفرغة حمولاتها من المتفجرات على مواقع المجاهدين وأصلتهم بصليات متصلة بنيران الرشاشات وأثخنت فيهم .

وفي فجر ٢٠ يناير دنا محور العقيد ماليتي من المجاهدين في الهواري ، كما كر المحور الثاني على هضبة التاج واشتد وطيس المعركة ، وتمكنت المدرعات من شق طريقها مكتسحة

التحصينات وقد دارت الدائرة على المجاهدين الذين فقدوا عدداً كبيراً من الرجال سقطوا شهداء وجرحى في الميدان وانسحب الباقون الى الهواري .

وفي اليوم الثاني قاوم المجاهدون مقاومة بطولية مستميتة لمنع العدو من دخول الكفرة ، ولكنهم لم يكونوا أسعد حظاً من اليوم السابق حيث خسروا المعركة بسبب عدم التكافؤ في العدد والأسلحة وانتصرت قوات العدو بطائراتها ومدرعاتها ومدافعها وأسلحتها المتطورة وعشرات الآلاف على بضع مئات من الثوار الذين لم يكن بحوزتهم إلا البندقية . واستولى الطليان على منطقة الجوف بعد أن سقط يومئذ حوالى ٢٠٠ من الثوار عدا الجرحى . وكان من بين الشهداء سليمان بومطاري وصابح العابدية وغيث بوقنديل وسليمان الشريف ومحمد بويونس ومحمد الحامي واحمد بوشناك وعبد السلام بوسريويل ومحمد العربي ومحمد بوسجادة ومحمد المسحوق وخليفة الدلال ومحمد الفايدي الجلولي وغيرهم .

كانت معركة الكفرة سجلاً حافلاً بالبطولات الفذة والمآسي الانسانية المؤلمة وكانت في الواقع مجزرة بشرية رهيبة .

لقد أطلقت السلطات الاستعمارية أيدي الجنود مدة ثلاثة أيام للعبث والبغي والمجون . . . . . . عبثوا بكل القيم . . . . . . وفتكوا بالشيوخ والنساء والأطفال . . . . . .

وسلبوا الامتعة وأتلفوا المزروعات وأحرقوا الغلال وهتكوا الحرمات ونصبوا أعواد المشانق وعلقوا عليها رجال الدين وزجوا بالكثيرين في غياهب السجون .

يقول الجنرال غراسياني في كتابه « برقة المهدّأة » :

(تعرضت حملة الكفرة الكبرى لخسائر فادحة ، ولكن كان النصر لنا . وكانت قوات العدو تحت قيادة رجال ذوي شان أمثال صالح الأطيوش وعبد الجليل سيف النصر وعبد الحميد بومطاري وحمود بن شغيلي الذين قاتلوا قواتنا الكبيرة بكل عددها وأعتدتها من طائرات ودبابات في معركة ضارية غير متكافئة . ومع ذلك كانوا أشداء أقوياء صابرين ثابتين أمام جحيم القصف لا يتقهقرون ولو أدى ذلك لمحقهم كلهم . وذلك اعتقاداً منهم بأنهم أصحاب حق ويملكون صفات الشجاعة والمقدرة والإقدام) .

وبعد سقوط الكفرة وانسحاب صالح الأطيوش جنوباً نحو العوينات أصدر الحاكم الايطالي تعليماته لطائرات السلاح الجوي الايطالي بملاحقة الثوار وقصفهم بشدة وضراوة ، كما أنفذ قواته المدرعة التي سارت في ثلاثة محاور صوب العوينات وجبال تبستي والحدود المصرية للقضاء عليهم .

وقد فتكت الطائرات بالعديد من القوافل . وكان

العطش في الصحراء أشد فتكا بالناس الهائمين على وجوههم . فقد عثرت القوات على طول الطريق بين الكفرة ومعطن البشاري على أشلاء جثث أطفال ونساء ملقاة على قارعة الطريق وهي تبحث عن الماء بسبب القصف الجوي .

لقد كانت عمليات الإبادة - في نظر جنرالات الاستعمار - لا تفرق بين رجل وامرأة فقد كانوا يعللون القتل الجماعي بأنه لا فرق بين طفل أو رجل او امرأة فالكل ثوار . . . وأنه من الممكن أن يكون الطفل اليافع اليوم ثائراً في الغد ومصدر خطر على النظام الفاشي وإن المرأة هي الأخرى ظهير للرجل في القتال . فقد كانت النساء العربيات يقمن بدور رئيسي في القتال ضدهم حيث كن يساعدن الثوار على الامداد بالأسلحة والذخيرة ويعملن على حشو البنادق بالذخيرة توفيراً للوقت - . . . وينقلن الجرحى ويقمن بتضميدهم والسهر عليهم . . . ويتولين استجلاب المياه والتموين من الأماكن البعيدة . وكان لهنّ دور إيجابي فعال في القتال . ومن ثم كانت قوات العدو تحصد كل هدف متحرك بصرف النظر عن الجنس او السن .

لقد خسر المجاهدون المعركة في واحات الكفرة . وكانت هزيمة المجاهدين قد ثبطت العزائم والهمم .

ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد صالح الأطيوش ولم

تثن همته عن مواصلة الجهاد والجلاد ، وفي شتاء سنة ١٩٣١ وبعد عشرين سنة من الصراع الدموي المرير في روابي برقة وخليج سرت وجبال الهروج وواحات الصحراء الوسطى ثم الكفرة وصل الى العوينات وقد فقد العديد من الرجال الافذاذ الذين راحوا ضحايا واجب مقدس دفاعاً عن العقيدة والكرامة والوطن .

وعلى الرغم من هذا الانهاك الشديد أبى ان يسلم ويرفع الراية البيضاء ، إنما قرر مواصلة مقارعة العدو الذي استباح كل القيم وسلب المقومات . قرر أن تكون العوينات قاعدة يستقر فيها ويدافع عنها ثم ينطلق منها للإغارة على قوات العدو . . . ولكن القدر كان يحمل له ما لم يكن في الحسبان .

رحلة محفوفة بالمخاطر

لقد سيطرت القوات العسكرية الايطالية بعد احتلال الكفرة على واحات الصحراء وأحكمت الخناق على فلول المجاهدين بسلسلة من القطعات العسكرية الآلية المتحركة إذ سدت عليهم كل أسباب الحياة .

انتقل المجاهدون والعديد من سكان الواحات جنوباً وشرقاً تلاحقهم طائرات السلاح الجوي الايطالي وأخذت تفتك بقوافلهم بلا هوادة . وانتقل صالح الاطيوش الى منطقة العوينات الواقعة على بعد حوالى ٣٠٠ كم جنوب شرقي الكفرة ، وهي تشبه خطاً قائم الزوايا على الخارطة ما بين ليبيا ومصر والسودان وتتكون من جبال شاهقة وبعض الأودية الخصبة تحدها من الشرق والجنوب مصر ومن جنوب الغرب السودان وتوجد بها مراع تكثر فيها قطعان الغزال والودان .

وكلمة العوينات تعني صيغة التصغير لعيون المياه العذبة

التي تختلف عن الآبار وهي عبارة عن صهاريج طبيعية محفورة في قلب الصخور البلّورية الصلدة وتحتفظ بمياه الامطار التي لا تتسرب منها أو تجف بسرعة .

اختار صالح الاطيوش هذه المنطقة القصية للاقامة لتكون آخر معقل للمجاهدين ومنجاة لعائلاتهم من الهلاك المحقق . واستقر هناك بعض الوقت على أمل ان يكر من هناك على القوات الاستعمارية في الواحات ، ولكن نقص المتاع(١) أجبره على ضرورة مغادرة المنطقة فقرر أن ينقل العائلات الى منطقة « مرقة » ،ورغم المعارضة الشديدة من رجاله اتفق سراً مع عبد الجليل سيف النصر على تنفيذ هذه الخطة .

وكان القدر يحمل ما لم يكن في الحسبان .. ايضاً .

وبدأت الرحلة الشاقة المحفوفة بالمحاذير والمخاطر الى مرقة . وقيل أن ثمة طريقاً بينها وبين العوينات ، ولكن أحداً لم يعرف ، ولم يوجد دليل يرشدهم الى هناك . وكادت تحل بهم كارثة في أعماق الصحراء . ومن المعروف ان ابسط خطأ

---

(١) يتوفر الماء في العوينات ولكن التموين الكافي نادر . ومما يذكر أن الطعام الرئيسي لدى سكان « التبو » هو الحنظل ، ويسمونه « الابرة » ويعدّه « الفاكهة » تشبه الليمون وهي عبارة عن كويرات مستديرة صفراء ، وأكثر منه حموضة ، ومرة المذاق . ويستخرج « التبو » لب الحنظل ويغلونه على الماء حتى تزول مرارته ثم يجففونه ويدقونه مع التمر ليصبح غذاء .

في معرفة الموقع المقصود في بيداء واسعة مترامية الاطراف يعني ملاقاة الحتف .

وبالفعل تاهت القافلة وسط أصقاع موحشة وفضاء ساكن يسود فيه الوجوم تارة والعواصف الشديدة تارة أخرى . فلا علامة يستدل بها على طريق ولا أثر لكائن متحرك ولا أحطاب للوقود ولا أعلاف للدواب .

وبعد مضي سبعة أيام بلياليها قل الزاد وجفت (قرب) المياه المحمولة على ظهور الإبل وخيم اليأس .

كثبان رملية لا نهاية لها يغشاها سراب خادع كالماء في المعواز يمتد في الأفق البعيد على مرمى البصر .

واستمرت القافلة تهيم على وجهها تارة تسلك دروباً وعرة متعبة للناس والدواب وتارة تنحدر الى أودية عميقة الغور وقد ساءت الأحوال . وينطبق على ذلك قول الشاعر :

كم في الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما في مفاجاة الفتى شرعٌ
وراء كل سبيل فيها قدرٌ
لا تعلم النفس ما يأتي وما يدعُ
فلست تدري وان كنت الحريص متى
تهبّ أرياحها أو يطلع السبعُ

ولست تأمن عند الصحو فاجئة

من العواصف فيها الخوف والهلعُ

ولست تدري وإن قدّرت مجتهداً

متى تحطّ رحالاً أو متى تضع

ولست تملك من أمر الدليل سوى

أنّ الدليل وإن أرداك متبع

وما الحياة اذا اظمأت وإن خدعت

إلا السراب على الصحراء يلتمع

واجمل الصبر في جدّ وفي عمل

فالصبر ينفع ما لا ينفع الجزع

لا شيء سوى الصبر لمواجهة الموت البطيء الذي يأتي بالتدريج وعلى مراحل زمنية محددة . لقد صادفت القافلة التائهة خلال هذه الرحلة من المشاق والشدائد ما يصعب وصفه ، عواصف هوجاء تحدث زئيراً وتثير الغبار يتصاعد الى ارتفاع شاهق ويحجب الرؤيا ويطبق الانفاس .

أضحى الاطفال الصغار والنساء يشكون الآلام المبرحة الموجعة ، ودب التعب في الاجسام المتهالكة من شدة العطش ، وخارت قوى الدواب التي نات بأحمالها المثقلة . وأقدام الرجال الاشداء لا تقوى على حمل الاجسام .

تباً للحظ السيء ، لقد قلبت الظروف القاهرة

للمجاهدين ظهر المجن . كان المقصود من هذه الرحلة تأمين راحة العائلات في ملجأ أمين ثم الانطلاق بغية الجهاد والاستشهاد فاذا بها قد تكون سبباً في فناء العائلات والرجال معاً في أعماق الصحراء .

إن أنين الأطفال من شدة العطش يقطع نياط القلوب ويحرك في النفوس لواعج الأسى والحزن .

وفجأة ، أمر صالح الاطيوش بالتوقف والعودة الى العوينات وعلم الرجال في اليوم الثامن أنه كان ينوي تأمين راحة العائلات في مرقة ثم يهاجم الطليان في الكفرة ، حيث خيل إليه من المعركة السابقة أنه كان بالإمكان إنزال الهزيمة بقوات العدو . ولكن الأقدار شاءت أن ينزح المهاجرون إلى مصر وتضل القافلة الطريق إلى مرقة .

وقفلت القافلة عائدة تسير نهاراً وليلاً دونما راحة أو هوادة ، وفي اليوم الثالث توفي العديد من الرحل من شدة العطش والاعياء .

وفي هذه الحالة أمر صالح الاطيوش بوجوب التوقف وإناخة الابل ورفع الاحمال عنها ونحر بعضها . وأخذ يستخرج الماء من بطونها بعد عصر الفرث ثم يوزعه بكل شفقة وحنان على النساء والاطفال والرجال بصرف النظر عن أقربهم أو أبعدهم نسباً .

وواصلت القافلة مسيرتها الشاقة الى العوينات ، وقد ضاع العديد من الرجال مرة أخرى . ومن هناك حملت القافلة زاداً وماء وتوجهت إلى مصر وقد سلكت مسلك قوافل المهاجرين السابقين الذي كان مفعماً بجثث الأطفال والنساء لغاية وادي حلفا .

وفي هذه المنطقة أسعفتهم ثلة من قوات الصحراء المصرية التي كانت ملتزمة بتقديم المساعدة الى المهاجرين على نفقة الامير عمر طوسون ونقلتهم الى المنيا .

وصلت قوافل المجاهدين الى الديار المصرية وعاشوا في الغربة مدة ١٣ سنة . واستميح القارىء الكريم عذراً أن سميتها غربة ذلك لأن صالح الاطيوش عاش هناك بين أهله وذويه من إخوته الجوازي الجبازنة وعلى رأسهم علي المصري ، عاش معززاً مكرماً طيلة مدة هجرته هناك .

وعندما نادى المنادي للانخراط في جيش التحرير الليبي للمساهمة مع قوات الحلفاء في تحرير البلاد من ربقة الاستعمار الفاشيستي ثم النازي فقد لبى النداء مع بقية المهاجرين وتم تشكيل جيش التحرير الذي استغل الموقف الدولي خلال الحرب الكونية الثانية للانتقام من الطليان إلى أن تم طردهم في النصف الأول من حقبة الاربعينات .

نهاية المطاف

لقد قيّض الله للمترجم له أن يعود الى أرض الوطن وقد تحررت من جحافل الفاشيست ، وقد تجرّع هؤلاء الطغاة البغاة مرارة الهزيمة . وقد توج بهذا كفاحه الطويل الذي لم يذهب سدى . وعاش حوالى أربع سنوات يستعيد ذكريات السنوات العجاف من المحن والآلام والانتصار والهزائم وتضحيات الرجال الأفذاذ الذين كانوا في صحبته بهضاب برقة وسهول المنطقة الوسطى وجبال الهروج والواحات والصحراء الشاسعة المترامية الاطراف .

وفي سنة ١٩٤٨ توفي صالح الاطيوش عن عمر يناهز السبعين سنة حيث ووري جثمانه الطاهر في مقبرة سيدي حسن باجدابيا التي رأى فيها النور لأول مرة ـ كما أسلفنا ـ فقد ولد في اجدابيا ، وبعد سنوات طويلة من الجهاد والمعاناة ، توفي في اجدابيا ، توفي هانيء البال قرير العين وقد توج كفاحه بالنصر

الذي وضعت أكاليله على هامته الاجيال اللاحقة التي تستلهم البذل والتضحية والفداء من روحه وأرواح رفاقه المجاهدين الذين تحدوا كل الغزاة ، وتستمطر عليهم شآبيب الرحمة والرضوان وعلى أرواح كل الشهداء الأبرار الراتعين في جنات الخلد مع الخالدين .

قبور المجاهدين الأبطال تتحول دائماً إلى مناجم
تطلع منها الأيدي المقاتلة من أجل الحرية .

بعض المراثي

وقد رثاه العديد من الشعراء الذين عاصروا كفاحه ونضاله في سبيل الحياة الحرة الكريمة. ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ أبا القاسم حفتر الفرجاني :

بـادن خـيـوط الـتـلافـين
مـن نـشـر عـلم الـشـغـايـل
امـبـاجـيـد هـن والجـرانـين
عـل فـقـد مـير الـقـبـايـل
الـلي طـال من العمـر سبعـين
كـلّ فـعـل خـير أو جمـايـل
أونـا زاد مـطـوجـن حـزيـن
حـزنـن ايجـيـب الـعـلايـل
عـل قـرعـتي دون لخـريـن
صـالـح لطيـوش الخـايـل

اللي نباه مشهور في الصين
أو تونس أو كل العمايل
يا ما لبس من نواشين
اكفا ما ألدول في الفعايل
هدايا ايجن ما لسلاطين
حكام تركيا في لوايل
او ياما قهر من قباطين
اللي أقرانهم جاي صايل
جو جيوش ردو ذوانين
منا جميع الفعايل
اللي من سعادة الدوزين
رضى من أشراف الأصايل
او ما يخلا مركز شياهين
عل الله ياهل دلايل
يا سامع قولت آمين
انريد ردها بالعجايل
هذا مو شبوهت العفنين
القاصرين سود الخصايل
اللي حدرو عالطلايين
أو زاطوا كلاب الغسايل

أو ما يفعلو غير في الشين
علـيهـم اخـزى والـنعـايـل
لا شـاطـهم عـرض لا ديـن
لا وطـن لا قـول قـايـل
يـوم الـلقـا سـود وصـخـين
امـبـاخيـس قـصّـر ذلايـل
مـرابـيط ربط الـشـواريـن
عـظاهـم امـهـشّـم دقـايـل
شـائـلينهـم لـنـواريـن
الـلي ايـلَهْـلَبـنْ بـالشـعـايـل
صـالـح عـلى الـوطن والـدين
يـا مـا نـظر مـن هـوايـل
او ربّـح الـنـاس المـسـاكـين
او رادع امـيـال الـعـدايـل
او جاه هنا راجع بعد حين
تمـنـيـتـلا عـمـر طـايـل
بعـد مـات يـا فـارز الـدين
يـا غـافـرن في الـزلايـل
انـعـن مـوطـن في جنـاويـن
بـين حـور سـود الـكحـايـل

في قصر لولي أو مرجين
طنافس وسط الدلايل
ابجاه من قرا حزب يسين
أو قام بالسنن والنفايل
امع لنبيا والشهيدين
ابجاه من يفك الوحايل

وقد رثاه الشاعر موسى الراوي القطعاني بالمرثية التالية :

احسَنْ عزاكم في راعي المعشيّة
مرفوعة الشوايا عالية لثمانْ
حضاها بعدّة او قلاعيّة
وركّاب خَزْ كَيْفْ وَمضَةْ النّار إيبانْ
بُو بَيتْ دِيم للضُيوف تِكيّةْ
امفصّل كما تَفْصيلَه الصّوانْ
فِيهْ الطقاق او فيه ناموسيّه
او فرشات ينطرحن على الحصرانْ
او فيه بِنتْ نَاسْ اَجْواَدْ سَعْداَويّة
اسنين الكروب حَنون عَالجيّرانْ
لاَ جَوْ اضيوفه في عقاب عشيّه
إيْباتُو سَرَاحَة في هَنَا وامانْ

واقف الهم عيّل وَلدْ بيــرنّــه
سريع قفزته للضيف مَاوْ كسلانْ
صالح لطيــوش رَايسْ الحربية
عَالِ الوظــايف راحة التعبــانْ
يَا أغلاَ ما جِيْتَ امعاك قَضيْه
تَـرتَاحْ الجـوابَة خَـاطـرك يَـطْمـانْ
رَاعِ الكحيْلْ اللِّ غـزير نَصيّة
أَسْمرْ كَمـا تَسْمِيـرة الـغـزلانْ
نَهَاراً ابـو اريـده أتّقـول قلّيـة
كَفُوا الكراهب فوق مَا لطْلّيَانْ[1]
أجوادْ واجهوا الكافر أبعَينْ قويْة
لا خَلْبدَة لا خَوْف لا أختلاَنْ
اوْ ردّتْ ادواره كـلهـن بجـليّـه
او راقت الدنيا قبل كَيْ ما كان
حَلَفْ إيمينْ مَا نركنْ لْهَا القضية
اولا نعيش تحت ادارة الـطليـان
اوْ جمْـعْ اعـوانـه كلهم بجْليّـة
والجار والرفيق اللي رفيق احسان

---

(١) كان الشاعر يعني بذلك أن المجاهدين كانوا في ذلك اليوم ، أي يوم معركة بلال الشهيرة يقلبون المدرعات على من فيها من الايطاليين وسط أزيز الرصاص الغزير .

وأمْــرْ ابْنيــغ المــالْ والـشــاوِيّــة
إلاَّ مَــا اكْخَيْـلَة بــاهيــة لَـلْوانْ
من عند الهاروج اقفزوا في اضْحَوْيَة
أوْ هَدُّوا على الكافر عدو لَدْيانْ
ارْجَالْ كلهم ضَنْوة عرب زُوبِيَّةْ
الـواحـد يَطَرْبِخْ ما لعَصَـرْ سَكْـران
اطــوال اطْرَ حتى اللي مرضيه
مـع رق تـزْايَـدْ بـلا اسـوْقَـانْ
قـدْرْ الهـا شـايب اوقـات غَشيّةْ
غـدّت اتقـول ايحت فيهـا جَـانْ
الهَا ايقول يا للي في الدرار سخيةْ
خلّيك ماشيه دغري بلا آجنحان
او نجبْتْ او راضت في اطراف خطيّة
قـدامها ســرايا من افـلان افلان
او خشْتْ أحْـدادة دَوْلة المصَـريّةْ
حـقّــانها لـغْـبنْ مـــع الجيــرَانْ
لا جـمـركـوهــا لا خـذو مــدْيَة
امفيت قوطم مرحب الشيخ افلان
او خشــوا على الـبـركـه الفيُـوميَّـة
او جَنْهُم ذَبايح مِنْ معيزْ او ضَانْ

او قدّم عريضـه لمجلس الدّوليـه
ابحبس العَقَيْلَه او كَافَة لَـوطَـانْ
او هَذي الدنيـا كل يـوم اوخَيَّةْ
او كـل حَاكيـاً ظالم وراه زمَـانْ
نلقَـانَ فقْدكْ يـا فَارسْ الـرِّيفيَّـهْ
كبير فَاهْقَكْ واسع علـى لَـوطَـانْ
حْـزانَ عليك مغـاربه وازويُّـه
او خَيْطْ الجبل او قَبَايلْ البَطْنَانْ
م الـسلوم لَزَاويـه النـوْفَلَيَّـهْ
على ما نشدنا ما على حد هَانْ
والعمـر فِيدْ اللّهْ مَـوْ في ايـديَّـهْ
والموتْ حَقْ مفروضه عَلَى لَنْسَـانْ

●

كما رثاه الشاعر الشعبي الشريْف السعيطي بمرثية طويلة نوجز منها ما يلي :

الـدنيـا غُرَرْ يـا فـارس المعشيّه
يا زعيم قومه ، يا عظيم الشان
يـا عز من صـارت معاه قضيُّه
يا طيطمى ، يـا فارس الفـرسان
صغير نفس شمول ابنظاف النية
لا اخـادعـه لا زور لا بهتـان

يـــا للي اديّـــر واســـين جفيّـــه
أيـام الشحـايـخ في غـلا لثمـان
وان عاندوك راسك في العناد قوية
وان لاينـوك بأمر السعدنة تليان
يـا شهير عنـد حكومـة التـركيـة
قديم رسم ساسـك واثق البنيان
حـــاربتهـا الـــدولـــة الـــطليـــانيـــة
لا رضيت بهم لا عـطيت أمان
دفعت حق برقة دم مـاو نقديـة
ياما خـذت في شأنها فـرسـان
أو ثاني على الهجرة عقدت النية
والهجرة سباهـا من فرز الاديـان
أجيـوشـك معـاك مغـاربـة وزويـه
اوجت وراك قـوة دايـره عشـان
أو قـامت بشأنـك دولـة المصـرية
أو قضيت خمسطاشر سنة في الأمان
مـع اميار هلهـا حاجتـك مقضية
نـين ضي من جهـة بـلادك بان
والله العـظيم انـك تعـز عليّ
ويـاسك كـراني كي بـالنيـران

أمغير أمر عالي مانع الحرية

أوكل من على الدنيا يقول كان

انعدك الباسل[١] فارس الرعية

أو علي بو عمر ضي الجوازي كان[٢]

أو غيّر على الدنيا فانية ومغنية

وما يدوم فيها الا موحد الأديان

---

(١) أحمد الباسل ، من كبار شيوخ قبيلة الفوايد وزعماء مصر .

(٢) علي المصري ، من كبار شيوخ قبيلة الجوازي الليبية المقيمة في مصر .

المراجع

● جذور النضال العربي في ليبيا ، للمؤلف ●

LACONQUISTA DELLA LIBIA. BOLOGNA
UNA PAGINA DOLOROSA DI STORIA LIBICA
IL PRIMO DECENNIO DELLA OCCUPAZIONE DI CIRENAICA
CIRENAICA PACIFICATA
PIONIERI ITALIANI IN LIBIA
GUERRA IN LIBIA
LE TERRA IN LIBIA
LE TERRE DELLA CIRENAICA
LA NOUVA ITALLA D»OLTREMARE
LALIBIAINVENTANNIDIOCCUPAZIONEITALLA-NA
THE MODERN OF ISLAM
PRITCHARD EVANS
CIRENAICA VERDE
RIVISTE ITALIANE
ALI ITALIANE NEL DESERTO
VERSO FEZZAN